الغَيْهَب



النور والظلام

إبراهيم محمد

الغَيْهَبُ



حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيال

رواية
النور والظلام
▪▪▪
الغَيْهَبُ
حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيال
▪▪▪
تأليف
إبراهيم محمد
▪▪▪
تصميم وإخراج
إبراهيم محمد
▪▪▪

▪▪▪
للتواصل مع المؤلف
Wordsonsnowtablet
Gmail | Facebook
▪▪▪
تنبيه

◾ هذا المؤَلَّف من قريحة مؤلِّفه، ولم يتم نقله أو اقتباسه منَ أي مصدر آخر.
◾ أي تشابه بين الرواية وأحداث وشخصيات واقعية هو محض مصادفة.

◾ لم يتم تدقيق هذه الرواية لغويًا
◾ تم إنتاج الصور باستخدام برامج الذكاء الاصطناعي، وباستخدام كلمات عامة دون وصف دقيق.

الغَيْهَبُ



حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيال

الغَيْهَبُ



النور والظلام

تأليف
إبراهيم محمد

للتواصل مع المؤلف
Wordsonsnowtablet@gmail.com



مقدمة

يقولون "إنَّ كل ما هو لك.. يليق بك".. بدءًا من ثيابك وحذائك.. إلى زوجتك وأبنائك.. إلى أصدقائك..

الكريم للكرام.. واللئيم للئام..

ولكنني لم أرَ في نفسي شيئًا يليق بالمصائب والكوارث.. فأنا ناظر مدرسة، تجاوزت الأربعين، وأعيش حياة سعيدة كريمة مع أسرتي..

أسرة مسلمة متديِّنة، كريمة الأصل والأخلاق، لا نفعل ما يغضب الله ولا نتعدى على خلق الله..

ويبدو أنَّ المصائب قد انزعجت من حالي، وأغاظها أنَّها لا تأتيني ولا آتيها، فعزمت على أنْ تجعل ما بقي من حياتي مصائبًا وكوارثًا..

و.. وهذه حكايتي.. أو حكاياتي..

تمهَّل.. قبل أن تمضي.. اسمي هو (عطيَّة).. تقول عطيَّة لمن؟.. فأقول عطيَّة من الله لأبي وأمي.. لا.. لست عطيَّة للمصائب..

1

انحياز

"فجأة خفتت أضواء المطعم جميعًا، وزحف الظلام على المكان، وأخذنا ننظر حولنا نحاول معرفة حقيقة ما حدث، وتعالت أصوات الحضور تعلل هذا بخلل في الكهرباء.
كلا.. لا يمكن أن يكون هذا خللًا في الكهرباء.. ما يحدث هو انسحاب أو انحياز للضوء والظل"

كنت جالسًا في ظلال الجهة الأمامية من منزلي في وقت الضحى، وقد وضعت قدمي اليسرى على فخذي الأيمن، وانهمكت في تقليم أظفاري، وأنا أفكر في وضع اللحن المناسب لأبيات عنترة بن شداد[1]:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل

مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كبارق ثغرك المتبسم

رفعت صوتي بمحاولتي:

- و... و.. لقد ذكرتوووووووكيييييييييي.. ورمااااااح نواهل مني.. وبيييييييض...

قطع محاولتي قدوم (زينب) لتقعد على المقعد المجاور وتضع ساقًا على ساق، وتقول في صرامة:

- مَن هي يا (عطية)؟

نظرت لها متسائلًا، قلت:

- هي؟

...جب علينا رعاية حد...

وضعَت قطعة سكر في كأسها وسكبت بعض الشاي من الإبريق على المنضدة التي تفصل مقعدينا، وأخذت تقلبها وهي تنظر إليَّ بعبوس، قالت:

---

[1] **عنترة بن شداد (525م - 608م)، وُلد في الجاهلية لأب عربي وأم حبشية في نجد في الجزيرة العربية، لُقِّب بـ "أبي الفوارس" وهو من شعراء المُعلقات، عاش حياة حافلة وقاسية لإنكار أبيه الاعتراف بأبوته له لفترة طويلة.**

- نعم، هي.

...أيتها الزهرة الجميلة المسـ..

توقفت عن تقليم أظفاري، ونظرت إليها، قلت بحدة:

- زينب!

واصلت التقليب لحظة، قبل أن تنبسط أساريرها، وتقول بابتسامة:

- لقد نلت منك.

... سأقتلعك أيُّتها العشبة الضَّار...

نظرت لها ولم أتكلم، وعدت لتقليم أظفاري، قلت:

- عزيزتي (سهيـ... زينب) لا يشغل القلب سواكِ.

... يا إله العالمين، من فعل هذا بنبتتي المسكينة...

أخذَت رشفة من كأسها، وهي تقول:

- سهير.. سهام.. سُهى.. في القلب أربع حجرات، جميعها باسم (زينب)، لا مكان سوى لـ (زينب).

تأملت أظفاري المقلمة، قلت:

- هل تعلمين أنَّ (زينب) اسم علم مؤنت ممنوع من الصرف.

...معتصم، يجب أن نهتم بهذه الورو...

سمعتها تأخذ رشفة طويلة باستمتاع، وتقول:

- ألم أقل لك؟

نظرت إليها وابتسمت بمكر، قلت:

- ولكن الضرورة الشعرية تبيح صرفها.

اغمضت عينيها وهي تأخذ رشفة أخرى، وتقول:

- حين تصير امرؤ القيس، سأشعر حينها بالقلق.

رفعت صوتي بالبيتين اليتيمين اللذين احفظهما:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمأل

وضعت كأسها وصفقت بيديها، صاحت:

- رائع يا امرؤ القيس[2]، أكمل وأمتعنا..

الماكرة.. أنها تعلم أنني لا أحفظ له سوى هذين البيتين منذ أيام الدراسة.. صمت وشغلت نفسي بالبحث عن ظفر يحتاج المزيد من التقليم، ليقاطعني صوت (زينب) من جديد:

- عطية.

التفت إليها وهي تردف:

- أتظنها على ما يرام؟

نظرت إلى حيث تنظر، إلى ابنتنا (خديجة) الواقفة تتحدث إلى نبتة جميلة وجوارها (معتصم) يحمل سلَّة من القش فيها ما اقتلاعاه من الأعشاب الضارَّة.

---

[2] أمْرُؤ القَيْس (500-540م) هو حُنْدُج بن حُجْر بن الحارث الكِنْدِيّ، وُلد في نجد في الجزيرة العربية ومات بأنقرة، صاحب أشهر المُعلقات وبدايتها ما قاله (عطية)، وُصِف بأنه أشعر الناس وحمل عدة ألقاب منها "الملك الضليل"، عاش حياة زاخرة بالحوادث بدأت باللهو وقوله الشعر الماجن ومخالطة الصعاليك وطرد أبيه له ثم سعيه للثأر من قتلة أبيه ومحاولة استعادة مُلْكه.

سألت:

- ولم لا؟

أجابتني:

- كنت اظن الأمر خاص بالدراسة، ولكنها تتحدث إلى كل شيء، بالأمس وجدتها تعتذر لمائدة المطبخ، بعد أن خدشت السكينة سطحها.

تأملت ابنتي (خديجة) وهي ترفع يديها إلى السماء، وتسأل الله أن يحمي النبتة من كل أذى، قلت:

- فرط طاقة ونشاط وهمة، لا أظن أن الجنون موجود في عائلتينا.

وتذكرت أمرًا، سألت:

- أين (أحمد)؟

زينب:

- يغتسل استعدادًا للذهاب لصلاة الجمعة معكم.

في هذه اللحظة اقتحمت ذهني صورة هي اللذة مُجسَّدة، أغمضت عينيّ وقلت في نهم وشراهة:

- زينب، أتعلمين فيم أفكر؟

لم انتظر جوابها وأكملت:

- صينية طماطم مع قطع البطاطس والبصل، مغطاة بالكامل بأصابع الكفتة، ومطهوة في الفرن.

فوجئت بها تسألني هاتفة:

- عطية، هل عادت؟

فتحت عيني ونظرت لها في دهشة وتساءلت:

- عادت! من هي التي عادت يا (زينب)؟

لم تجبني واكتفت بالتحديق في وجهي، قبل أن تشيح بوجهها وتقول:

- لا شيء، حسنًا، هذا هو غداؤكم اليوم.

أدركت ما تفكر فيه، ولم أحب الحديث عنه، وتجاهلت الأمر تمامًا، وساعدني على ذلك قدوم ابننا (أحمد) متأنقًا، وبدون تحية قال:

- أبي هل سنذهب للمسجد بالسيارة؟

كان ابني (أحمد) قد أُصيب بشيء لا أجد له اسمًا سوى "سُعار السيَّارة"، لا نستطيع السير بضعة أمتار حتَّى يقترح أنْ نستقل السيارة، ويقدّم نفسه لقيادتها، والمسجد لا يبعد عن منزلنا سوى بضعة عشرات الأمتار، أراحتني (زينب) من الرد بقولها:

- لا يا أستاذ (أحمد)، ستذهبون للمسجد على الأقدام كالعادة.

وقف والعبوس على وجهه، وأنّبته أمه:

- وعادة القادم يلقي التحية قبل البدء بالحديث.

ألقى بالسلام على مضض جعلني أقول:

- السيّارة تقودها حين تمتلك رُخصة القيادة، وليس قبل ذلك.

أراد ان يجادلني بأدلته المعتادة، صديقي فلان يقود سيارة أبيه بلا رخصة، وصديقي علّان يقود سيارة جده، قلت:

- سيارتي يقودها من يحمل رخصة قيادة سارية المفعول، وبموافقتي الصريحة بذلك.

ارتفع صوت الأذان الأوَّل لصلاة الجمعة، ونـهضت من مقعدي، وأنا أواصل حديثي:

- سأذهب لاستبدال ملابسي لنذهب إلى المسجد.

ونظرت إلى (معتصم)، ناديته:

- معتصم، هيا، استبدل ملابسك كي نذهب للصلاة.

*** * ***

سرت مع أسرتي وقت العشاء متجهين إلى مطعم اعتدنا التردد عليه في أطراف مدينتنا، واستمتعنا بالسير في الشارع المُضاء وعلى جانبيه الأشجار، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، وابطأ (أحمد) عنَّا، واقترحت (خديجة) لعبة صغيرة شاركنا فيها جميعًا، ولحق بنا (أحمد) يقول:

- أبي، ماذا تقول إذا أحضرت السيارة وأوصلتكم المطعم، ثم أعود لأركنها في مكانها السابق؟

علت ضحكاتنا، و(أحمد) ينظر إلينا في استغراب، ومن بين ضحكاتها، قالت (زينب):

- لقد فاز (معتصم).

أدرك (أحمد) الأمر، وواصل سيره في عبوس واحباط..

اتخذنا مائدة بعيدة في حديقة المطعم، قريبة من شلال اصطناعي ينبع من زخرفة اتخذت هيئة جبال نحاسية اللون، وجاء النادل يرحب بنا ويسألنا عمّ

نرغب، الغداء اللذيذ لم يبق فينا رغبة للمزيد من الطعام، وطلبنا الفواكه والمشروبات المثلجة بالإضافة إلى شطيرة جبن لـ (معتصم)، وأخذنا الحديث عن كيفية قضاء الإجازة الصيفية، وكنت أرغب في قضائها كالمعتاد، الذهاب إلى القرية وزيارة الأهل والأصدقاء، ثم قضاء الأسبوعين الأخيرين في المصيف، ولكن أخي (جابر) يلح عليَّ بالذهاب بمفردي إلى (لندن) لزيارة شقيقنا (عدنان) الذي يعمل طبيبًا هناك، وقد علل (جابر) ذهابي بمفردي لأنَّه "لا يجد راحته في بلد الأجانب وهو يرتدي الجلابية، وتلك البلاد ليس فيها من الحشمة ما يناسب أسرنا وديننا وعاداتنا وتقاليدنا"، كما أنني أجيد الإنجليزية وهو يسمع عنها فقط.

طبعًا جميع أفراد أسرتي مع خيار تغيير ما اعتدناه، ومرافقتي لرؤية أخي، والذهاب والاستمتاع برؤية بلد آخر، قلت لهم:

- إنَّها زيارة قصيرة للاطمئنان على عمكم، وإقناعه بضرورة إيجاد بعض الوقت لزيارة أهله وبلده.

خديجة:

- ونحن معك يا أبي، نرغب في لقاء عمي والاطمئنان عليه.

أحمد:

- وكي نساعدك في إقناعه.

قلت:

- زيارتي لن تزيد عن أسبوعين.

خديجة:

- كافية جدًّا لرؤية عمي والاطمئنان عليه وإقناعه بالحضور معنا وزيارة معالم (لندن).

نظرت إلى (زينب) أطلب منها مساندتي، قلت:

- لا أراها كافية.

قالت (زينب):

- هذه الرحلة تحتاج تذاكر طيران لخمسة أشخاص وحجز فنادق، وغير ذلك، ستكون تكلفتها باهظة.

أحمد:

- عمِّي (جابر) هو من سيد...

فجأة خفتت أضواء المطعم جميعًا، وزحف الظلام على المكان، وأخذنا ننظر حولنا نحاول معرفة حقيقة ما حدث، وتعالت أصوات الحضور تعلل هذا بخلل في الكهرباء.

كلا.. لا يمكن أن يكون هذا خللًا في الكهرباء.. ما يحدث هو انسحاب أو انحياز للضوء والظل، كأنّك حركت مصباحًا ليضيء بقعة معينة، باستثناء أنَّ مصابيح المطعم لم تتحرك عن مواضعها ولم تتغير شدتها، حتَّى يسهل إيضاح الأمر، تخيَّل الضوء برادة حديد وقمت بوضع مغناطيس بالقرب منها، أو أنَّ الضوء اختار بقعة يذهب إليها وتجاهل سواها فبقيت معتمة رغم أنها أمامه وظاهرة له.

كنت أرى الضوء ينسحب نحو بقعة خارج حديقة المطعم، وهي تتحرك على طول الطريق، قبل أن تعود أضواء المطعم لطبيعتها، وتتعالى أصوات

الارتياح، أخذتني الدهشة من الأمر والحيرة من طبيعة الإنسان، هل حقًا لم يلحظ أحد الحضور ما حدث؟ ألم يشاهدوا انحياز الضوء وأنَّ المصابيح لم تتغير مواضعها ولم تتبدل شدتها؟ أم الإنسان بطبيعته ينأى بنفسه عن ما يعكر صفوه وإبعاد ذهنه عن الإشتغال بتفسير ما لا يفسد شؤونه؟

تجاهلنا الأمر وعدنا للحديث للحديث عن زيارتي لأخي (عدنان) في (لندن)، واتفقنا على تأجيل الحديث في هذا الأمر إلى حين حديثي مع أخي (جابر) مرة أخرى عن هذا.

قررنا العودة إلى البيت ولكنني رغبت في غسل يديَّ قبل الرجوع، ذهبت إلى المراحيض لأجدها مظلمة على غير العادة، شرعت في غسل يديَّ من آثار المُثلجات حين تناهى إلى مسامعي صوت نحيب صادر من وراء أحد الأبواب.. التفت خلفي.. كانت ابواب المراحيض مفتوحة باستثناء الأخير.. أغلقت الصنبور.. واتجهت بخطوات وئيدة إلى الباب المغلق، وبحذر طرقت الباب وأنا أقول:

- يا هذا، هل أنت على ما يرام؟

مع جملتي انقطع الصوت فجأة، وكررت الطَرْق والسؤال، وفطنت في الظلمة إلى أنَّ الباب ليس موصدًا، بل هناك فرجة صغيرة، بحذر شديد دفعت الباب، لتعود الأضواء قوية، وفطنت للأمر مرة أخرى، لم يكن هناك عطل في المصابيح بل انحياز للضوء، انحياز إلى بقعة داخل المرحاض الذي أقف ببابه، بجرأة دفعت الباب ونظرت إلى الداخل، لم يكن هناك أحد في الداخل، أصابتني الدهشة حتَّى أنني بحثت خلف الباب لعلي أجد أحدًا ما

مختبئًا، ولكن لم أجد أحدًا هناك، عدت لأسرتي واتجهنا إلى سيارتي المركونة بالقرب من المطعم، كان ذهني مشغولًا بما حدث ورأيته، ولاحظت (زينب) انشغالي وسألتني عن سببه، أخبرتها بأن تترك الأمر لما بعد، فآخر ما أرغب فيه أن أشغل أسرتي بأمور لا تعنينا، تنبهت لطرافة الأمر، فأنا أشغل نفسي بأمور لا تعنيني ولا تهمني.. لا تهمني! حقًا! فلماذا تشغل بالي؟

بلغنا موضع سيارتي لنجد المكان مظلمًا، نظرت إلى مصابيح الطريق، كانت تعمل على أفضل ما يرام، بحثت عمَّا أفكر فيه.. ووجدته.. كان الضوء ينحاز نحو بقعة مظلمة بعيدة عند شجرة من أشجار الطريق، رغم المسافة البعيدة شعرت أنَّ هناك شخص.. أو شيء ما يختبئ في ظلال الشجرة وينظر إليَّ.. شيء أثار الرجفة في أوصالي..

*** * ***

-عطية.. عطية..

أخرجني صوت (زينب) مما أنا فيه، ونظرت إليها بعيون لا ترى، وسمعت صوتها يتردد في رأسي مرة أخرى:

- عطية.. عطية.. ماذا هناك؟

نفضت رأسي وأخرجت الأمر من رأسي وأنا أجيبها:

- لا شيء، شغلني أمر ما.

دخلنا السيارة، وأدرت المحرك وأنا أفكر في أمر مصابيح السيارة، هل ستُضيء الطريق أم.. وعاد الضوء لطبيعته وأضاء المكان والطريق..

قدت السيارة بصمت تام، وشعرت أسرتي بأنَّ هناك أمر ما يشغلني، فلم يتحدث أحدهم، وأخذت انظر في المرآة بين الفينة والأخرى لأرى ما خلفي، وأشاهد ما يطارد سيارتي على مسافة، يسرع حين تسرع ويبطئ حين تبطئ.. شيء ما.. يسبب انحيازًا للضوء..

***

فرغنا من صلاة العشاء في الفسحة الصغيرة الفارغة من حجرة مكتبي، وانصرف كل منَّا إلى شؤونه، وذهبت إلى مقعدي خلف مكتبي، وأسندت رأسي إلى ظهره وأغلقت عينيّ، وانهمكت في التفكير فيما حدث، لم أشعر بمرور الوقت حتَّى سمعت (زينب) تنادي اسمي بخفوت، فتحت عينيّ لأجدها واقفة أمام المكتب، وتحمل صينية الشاي، قالت:

- هل نمت؟

أجبتها وأنا انهض عن مقعدي:

- لا، لم أنم.

ودرت حول المكتب لأجلس على الأريكة أمام المكتب، في حين وضعت (زينب) ما تحمله على المنضدة القصيرة، وتجلس على الأريكة المقابلة لي.

سكبت (زينب) لنا كأسين من الشاي، وناولتني إحداهما وهي تسأل:

- ماذا هناك يا (عطية)؟ منذ عدت من مراحيض المطعم وأنت مشغول الذهن!

لم أرغب في مصارحتها بما يشغلني، ولكن لساني خانني، ووجدته يقول:

- الأضواء.

كرَرت كلمتي بتأني وهي تهز رأسها وتمط شفتيها، وكأنها كانت تتوقع الأمر، قالت:

- رأيته ولم أفهمه، ظننت أنه خداع بصري.

أخذت رشفة من كأسي، قلت:

- لقد تكرر الأمر.

- حيث ركنت السيارة.

-وفي المراحيض.

-في المراحيض!

-نعم.

وقصصت عليها ما كان، وأخفيت أمر المطاردة ولكنها كانت مدركة لما يحدث حينها، قالت:

- عطية، هل تظن أنَّ الأمر له علاقة بحالتك السابقة؟

نظرت إليها في دهشة وهتفت:

- حالتي السابقة! ماذا تعنين؟

نظرت إلى إبريق الشاي بعيون لا ترى، قالت:

- كنت تسمع أفكار الآخرين، والآن تجذب الأضواء.

وجدت نفسي أقَهْقه، قبل أنْ أقول:

- لا أظن ذلك يا سَيِّدة (زينب)، كما أنّ الأضواء كانت تنجذب بعيدًا عنّي.

وافقتني بإيماءة من رأسها، قالت:

- هذا صحيح، ولكنه تعقَّبنا إلى هنا.

كررت بدهشة:

- تعقبنا إلى هنا! ما هو الذي تعقبنا؟

رمقتني بعينيها وهي تقول:

- الذي كنت تنظر إليه في مرآة السيارة بين الحين والآخر.

دائمًا كنت أشعر أنَّ أبا (زينب) قد ظلمها حين اكتفى بإكمالها الثانوية العامة، ومنعها من الذهاب إلى الدراسة في الجامعة، حتمًا كانت ستصبح امرأة ذات شأن عظيم يومًا ما، لقد كانت حاضرة الذهن لا تفوتها شاردة ولا واردة.

قاطعنا صوت طرقات على باب المكتب، ودخول (خديجة) وهي تقول:

- لقد جاء بي صوت ضحكات أبي، قلت لا تفوتني جلسة الأُنْس.

وجلست بجوار أمها التي سارعت بسؤالها:

- أين (معتصم)؟

بحثت (خديجة) في صينية الشاي كأنها تبحث في غابة كثيفة الأشجار، وأجابت أمها:

- نائم في فراشه، أين كأسي؟

زينب:

- ينتظرك في المطبخ، و(أحمد)؟

رفعت (خديجة) ذراعيها ورأسها للسقف كأنَّها تبتهل، وصاحت:

- خديجة المنسيَّة، هذا أنا ولا أنا سواي، أ..

نَهرتها أمها مقاطعة:

- خديجة! لا نريد صياحًا، أين (أحمد)؟

دون أن تخفض ذراعيها، تابعت (خديجة) بخفوت:

- في حجرته يستخدم جهاز الحاسوب اللوحي الخاص به، هذا أنا، (خديجة) المظلومة، لا يُسمع صوتها ولا يُحضر كأسها وتزجرها أمها.

ضحكت من كلامها ودار الحديث بيننا بعيدًا عن أحداث الليلة..

* * *

2

حكايات من كل مكان

"لا أحد يعلم ما أصابني سابقًا، الجميع يعلم أنني أُصبت بوعكة صحية، ولكن الحقيقة لا يعلمها سوى أسرتي فقط، وخمَّنها المدرسون تخمينًا، وأسرتي والمدرسون بعيدون عن البلدة، فكيف علمت البلدة كُلّها بحقيقة ما أصابني؟"

كانت ليلتي كابوسية، أحلم أنني أغرق في بحر من الضوء وأمواجه من الظلام، تعلو كالجبال ثم تنهال علي لتطمرني أسفلها، حتَّى أوشك على الاختناق ثم أطفو من جديد..

فتحت عينيّ ونظرت لسقف حجرة نومي وأنا لا أراه بسبب الظلام الشديد، وأنفاس (زينب) تتردد في صدرها وتبلغ مسامعي مع صوت مكيّف الهواء الخافت، غريب هذا.. مُكيّف الهواء لا يزال يعمل، هذا يعني أنَّ ما نمته أقل من ساعة، لقد أعددته ليتوقف بعد ساعة، وهذه الكوابيس! لم نتناول طعام العشاء الليلة، لم أتناول سوى طبق الفواكهة المُثلجة، من أين جاءت؟ من طرف عيني رأيت المصباح الصغير على المنضدة الصغيرة بجوار السرير، لقد كان يشع بنوره الخافت، يشع بنوره الخافت! فلم الظلام الشديد؟

هنا توالت في ذهني أحداث الليلة ووجدت نفسي أعتدل في فراشي بعنف.. ورأيته.. رأيته في الظلام الشديد!.. نعم رأيته كأوضح ما يكون.. ظلامًا أشد من الظلام.. سوادًا أشد من السواد.. سواد يأخذ هيئة شخص يقف أمام باب حجرة نومي من الداخل، ولا أعلم أينظر في اتجاهي أم الاِتجاه الآخر؟ ولكن يقيني أنَّه ينظر إليَّ..

مكثت في موضعي بلا حراك، ولا أدري ماذا أفعل؟ وسبقني بالفعل ورأيته يختفي ويعود الضوء لطبيعته، ويضيء الحجرة بنور خافت، لوهلة لم تتحرك ساكنة منّي، ثم بسرعة رفعت الغطاء الخفيف عنّي، وهُرعت أفتح الباب وانظر إلى البهو، لقد كان هنا.. لقد أدركت الضوء وهو يعود إلى طبيعته.. ولكنني لا أعلم إلى أين اتجه؟ نزلت إلى الطابق الأرضي حيث

المطبخ وحجرة المكتب وبهو الاستقبال، كانت الإضاءة خافتة تسمح برؤية حدود الأشياء، ولكنها تعمل بشكل طبيعي، اتجهت إلى الباب الرئيسي للبيت، فتحته ووقفت على عتبته انظر للحديقة الصغيرة ومنها إلى البوابة الخارجية والشارع، ونظرت لمصابيح الشارع ابحث عن أثره ولم... ورأيته عند الطرف البعيد على بُعد عدة منازل من بيتي على الجانب الآخر من الطريق.. أسرعت إلى البوابة الخارجية افتحها، ونظرت فلم أجد لما ابحث عنه أثرًا، مكثت في مكاني بضع دقائق انظر حولي، كانت الحركة في الشارع قليلة، فقد قاربنا منتصف الليل، عدت إلى الداخل وأغلقت الأبواب جيِّدًا لتفاجئني (زينب) وهي تضيء المصابيح وتهرول نحوي حاملة بندقيتها القديمة، هتفت في دهشة:

- زينب! ماذا هناك؟

انبسطت أساريرها لرؤيتي وأجابتني هاتفة:

- أجبني أنت، ظننتك ذهبت للمطبخ لتصنع شيئًا يساعدك على النوم، ثم تذكرت ما حدث الليلة، فأسرعت ابحث عنك.

انتزعت البندقية من يدها، وطرقت على جبينها بأناملي وأنا أقول:

- أكثر من عشرين سنة يا (زينب)، أكثر من عشرين سنة منذ غادرنا الأرياف، ولا زالت الأرياف تعيش في رأسك.

قالت:

- دعك من هذا، ماذا حدث؟ لماذا غادرت البيت وأنت ترتدي المنامة؟

أجبتها:

- شعرت بحركة في المنزل، وظننت أنَّ هناك لصًا، ولكنني كنت واهمًا.

نظرت إليَّ بشك، قالت:

- لص؟! وخرجت تبحث عنه بلا سلاح أو حتَّى عصا!

مرَّة أخرى طرقت جبينها بأطراف أصابعي وأنا أقول:

- الأرياف، الأرياف يا (زينب)، أخرجيها من هنا، منذ عشرين سنة ونحن من أهل المدينة، أو على الأقل من ضواحيها.

جاء دورها لتطرق جبيني بأناملها وتقول:

- عَيْبك يا (عطية) أنك تنسى أنني (زينب)، (زينب) ابنة الحاج (سلامة) كبير البلد.

رفعت ذراعي ممدوة وأشرت بسبابتي إلى السلم المؤدي لأعلى، قلت:

- زينب، هيا، أمامي إلى النوم.

بلغنا باب حجرة نومنا لنسمع أصواتًا قادمة حجرة (خديجة)، هُرعنا إلى هناك ودفعت الباب، لنجد (خديجة) تعيش حلمًا أو كابوسًا، وتصيح بكلمات غير مفهومة وتشير بيديها، اقتربت منها وربت على كتفها وأنا أقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم، (خديجة)، ابنتي، خديجة، أرقدي على جانبكِ الأيمن..

سكنت قبل أن ترفع ذراعها شاهرة سبابتها، حتَّى كادت أن تقلع عينيّ، قبل أن ترقد على جانبها الأيمن، اطمأننت عليها، واستدرت لأجد (زينب) على الباب تنظر إلى ابنتنا، همست لي:

- يجب أن ننظر في أمرها.

دفعتها برفق أمامي وأغلقت الباب خلفي وأنا أقول:

- لننظر في أمر ابنة الحاج (سلامة) أوّلًا، ثم ننظر في أمر ابنتي (خديجة).

* * *

انقضت عدة أيام ولم يحدث شيء يستحق الذكر، وأوشكت على نسيان الأمر، قبل أن يتكرر في ليلة كنت ساهرًا فيها في حجرة المكتب، وقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحًا، وقد خفتُّ الأضواء واضطجعت على الأريكة ممسكًا بالحاسوب اللوحي الخاص بي، واتصفح كتابًا عن تاريخ الدولة الأموية، حين تكرر الأمر وحدث انحياز الضوء، وكان رد فعلي حاضرًا، اعتدلت من فوري ويدي تمتد تضع الحاسوب على المنضدة القصيرة، ورأيته..

واقفًا في الفسحة الصغيرة بين المقعدين أمام المكتب، ووجدت نفسي أهتف:

- أنت!

هتفت بها وكأنني أعرفه، وارتبك هو، كما أسلفت كان هو بقعة سوداء مظلمة تتخذ هيئة إنسان، وتميّزه عن الظلام بشدة ظُلمته وسواده..

سلوك الهيئة يوحي بأنَّه فوجئ من فعلي وارتبك، نهضت من مكاني، ليزداد ارتباكًا قبل أن يندفع نحو الحائط المقابل للحديقة، ويختفي ومن نافذة

المكتب تتبعت طريقه بمراقبة انحياز أضواء الشارع حتَّى اختفى عن ناظريَّ..

مَن هو؟.. مَن هو؟! أم ما هو؟ أنَّه يأخذ هيئة البشر ولكن ما هو؟ هل هو من البشر؟ إذًا كيف صار إلى هذه الحالة؟ وماذا يبتغي منّي؟ لماذا يطاردني ويقتحم بيتي؟

انتابني شوق غريب للقاء (عبد الكريم)، لم التقه سوى مرتين منذ مسألة (سعيد) التي جمعتنا ببعضنا، وعلمت منه بأنَّه مشغول في البحث عن (عوّاده)، لم يكن مهتمًا بدورها في جريمة القتل، بقدر اهتمامه بكيفية حصولها ومعرفتها بالوسائل التي استخدمتها لمساعدة (سعيد) في ارتكاب جريمة قتل ابن عمه (صابر)، وعزمت أن يكون الاتصال به هو أوَّل أعمالي في النهار.

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، لقد تبقى لأذان الفجر قرابة ثلاث ساعات، هل أنام الآن؟ كلا، النوم الآن يعني ضياع صلاة الفجر، أو مشقة القيام لها، لم أكن يومًا من عشّاق السهر، ولكنني أحيانًا أنسى وأتناول القهوة بعد العصر، وهذا يعني صعوبة النوم في الوقت المُعتاد، عدت إلى ما كنت عليه قبل أن يحدث ما حدث، و.. استيقظت على (زينب) وهي تهزّ كتفي بقوة وتنادي باسمي لنصلي الفجر.

* * *

حدث اليوم ما أفسد ما أعددته لهذا اليوم، كنت قد استيقظت متأخرًا وقت الهاجرة، وأثناء جلستي المعتادة عند جانب منزلي، وقد أوشكت الشمس أن تطل برأسها على موضعي، جاءت إحدى النسوة لزيارتنا، واصطحبتها (زينب) إلى بهو الاستقبال، وبعد قليل فوجئت بمجيء (زينب) لتخبرني أنَّ زائرتها ترغب في مقابلتي، دُهشت من هذا الأمر، وسألت (زينب) عن الأمر، فأجابتني بأنَّها لا تعلم، دخلت المنزل بصحبة (زينب) وأنا في حيرة من أمري.

كانت المرأة من نساء قريتنا، وتعرفنا من خلال حلقة وسيطة من المعارف والجيران، وبعد التحية وتبادل الأخبار والاطمئنان على هذا وإرسال التحيات إلى ذاك، ساد صمت يغلب عليه التردد والإحراج من قِبل المرأة، مما دفعني لمحاولة رفعه عنها وتشجيعها على الحديث عن ما جاءت لأجله:

- حاجة (أم خليل)، أشعر أنَّ هناك أمرًا ترغبين في الحديث عنه، ولكنك تترددين، فإن كان أمرًا استطيع أقدم لكِ يد العون فيه فلا تترددي فأنا لن أتأخر عنك.

أم خليل:

- الله يبارك فيك يا أستاذ (عطية)، سمعة الحاج (فرج) - رحمه الله - وأبنائه تسبقهم في كل مكان، وقد جئتك وأنا أعلم أنَّك لن تردني خائبة.

شكرتها وانتظرت أن تفصح عن حاجتها، ولكنها لزمت الصمت مما جعلني انظر إلى (زينب)، وأطلب منها العون، ولكن المرأة لملمت نفسها وعزمت أمرها، تنحنحت وتكلمت:

- الحقيقة يا أستاذ (عطية) أنَّ ابنتي (حسناء) قد بلغت الثلاثين عامًا وهي لم تتزوج بعد.

سكتت ولم أفهم من حديثها شيئًا، تبادلت مع (زينب) النظرات المتسائلة، وانتظرت من المرأة أن تُكمل حديثها، وأكملت:

- لا تشكو ابنتي عيبًا، فهي اسم على مُسمى، طويلة وجميلة ونشيطة وأخلاقها حميدة، و...

وتوقفت، فقلت أشجعها:

- و..

قالت:

- ورغم هذا لم يتقدم أحد للزواج منها أو طلب يدها أو حتَّى الكلام عنها على الأقل.

لا أعلم علاقتي بهذا الأمر، أو كيف أقدم لها يد العون في ذلك الأمر، ما لم تريدني أن أتقدم لخِطبة ابنتها والزواج منها، وهذا أمر لا أفكر فيه.

قاطعت المرأة أفكاري باستكمالها الحديث:

- وأنت يا أستاذ (عطية)، وقد أكرمك الله ورفع عنك الحجاب، وصاحبت الأسْياد، لعلك تعلم من صنع العمل الذي أوقف حالها وأين وضعه وتعلم كيف تُبطله.

وجدت نفسي أهتف قائلًا:

- ماذا؟

ونظرت إلى (زينب) فألفيتها تنظر للمرأة في استغراب، وعدت أنظر للمرأة نظرة مباشرة لأوَّل مرَّة، ورأيت امرأة كبيرة السن، طيبة الملامح وبسيطة الملابس، وقلت في عبوس:

- ما هذا الهُراء يا حاجة (أم خليل)؟ مَن أخبرك بهذا؟

أجابتني:

- البلد كُلّها تتحدث عن هذا الأمر يا أستاذ (عطية)...

قاطعتها وقد ازددت دهشةً:

- البلد كُلّها!

لا أحد يعلم ما أصابني سابقًا، الجميع يعلم أنني أُصبت بوعكة صحية، ولكن الحقيقة لا يعلمها سوى أسرتي فقط، وخمَّنها المدرسون تخمينًا، وأسرتي والمدرسون بعيدون عن البلدة، فكيف علمت البلدة كُلّها بحقيقة ما أصابني؟ اتجه تفكيري إلى مَنْحى آخر، وهو كيف أُغلق هذا الباب؟ أعلم أهل البلدة وطبائعهم، وبعد قليل سأجدهم وأهل البلدات المحيطة على باب بيتي، وبدلًا من الأستاذ (عطية) سأصبح الشيْخ (عطية)، أو أبا السِرّ الباتع.

مرَّة أخرى قاطعت المرأة أفكاري، وهي تقول في رجاء:

- أستاذ (عطية)، أنا من بلدتك وأوَّل مرَّة أدخل بيتك، أرجوك لا ترد حاجتي.

استحضرت قدراتي التمثيلية الهزيلة، وهززت رأسي في حزن وأسى وأنا أقول:

- لست في حاجة لقول هذا يا (أم خليل)، أنت من بلدتي ومجيئك لبيتي يجعلاني أخجل من عدم تلبية حاجتك ولكن..

وتوقفت لأضع أكبر قدر من الحزن في وجهي وكلماتي، أردفت:

- ولكن مَن وضع السرّ أخذه، يبدو أنني لم أكن أهلًا لهذه الأمانة، وعاد الحجاب وفارقت الأسياد.

تجاهلت الدهشة على وجه (زينب)، وسمعت (أم خليل) تقول في حسرة ولوعة:

- مَن وضع السرّ أخذه! عاد الحجاب! فارقت الأسياد!

حتمًا لم أكذب عليها في شيء، ولكنني استخدمت مفردات ثقافتها في قول الحقيقة، لقد فارقتني الحالة التي مررت بها، لم أعد أسمع أفكار من حولي (مَن وضع السرّ أخذه)، وعادت الأمور (الحجاب) بيني وبين من حولي لطبيعتها، وفارقت الأسياد (الناس ذو القدرات الخاصة) فلم أعد منهم.

حاولت أن أخرج المرأة مما أصابها من الإحباط والأسى، قلت:

- ولكن هناك خير من هذا كله.

عاد الأمل إلى وجه المرأة، هتفت:

- حقًا؟

أجبتها بتأكيد مع هزّ رأسي:

- حقًا يا (أم خليل)، المحافظة على الصلوات في أوقاتها وقراءة القرآن وأذكار الصباح والمساء، وإخراج الصدقات بنية التكفير عن الذنوب ورفع الأذى ودفع السحر والحسد عن النفس والأهل والمال والأملاك، وأنْ تسألي

الله حاجتك يكون أوَّل ما تفعلينه عند فتح عينيك حين الاستيقاظ من النوم، والدعاء في مواطن إجابة الدعاء عند السجود وسماع الأذان ورص الصفوف وعند نزول الغيث، كل هذا يرفع الأذى ويُبطل السحر والحسد عن البيت وأهله.

والعياذ بالله لم يبد الإقتناع على وجهها وهزَّت رأسها توافق حديثي والحقيقة أنَّها تجاملني، كانت الساذجة تبحث عن "تقنيات" وأساليب مختلفة، أساليب تثق فيها وتأتي من ثقافة متأصلة في مجتمع جاهل بدينه وبحقيقة الدجالين فيه، مثل ريشة هدهد يتيم مغموسة في ماء شرب منه سبعة من الجِن أحدهم أعرج، وتُربط بشعرة من لحيتي، وتُعلق على باب منزلها.

في قناعتها هذه هي الأساليب الفعالة في تدمير السحر والحسد، أساليب تحتاج تعب وجهد ومشقَّة، وحتمًا النتيجة بقدر المشَقَّة، وحين فشلها فالسبب حتمًا هو أنَّ الهدهد لم يكن يتيمًا، أو أنَّ الجِني الأعرج لم يكن أعرج.

لعن الله إبليس وجنده، حتَّى وهم يقودون الناس إلى جهنم، لا يكفيهم خسران الناس آخرتهم، بل يجب عليهم خسران دنياهم، وجعلها مشقَّة وذلًا وهوانًا.

لم يعد هناك الحاجة إلى مزيد من الكلام، استأذنت (أم خليل) في الاِنصراف وهي تنهض، واعتذرت عن قبول دعوتنا لها بانتظار طعام الغداء، ورافقتها (زينب) إلى الباب، في حين لم أترك أنا مجلسي وأنا أتعجب من أمر هذه

المرأة، وأتساءل كيف بلغ حقيقة ما أصابني قبل بضعة أسابيع لأهل بلدتي، وعادت (زينب) لتجلس على مقعد قريب وتتكئ بمرفقها على ذراعه، وتسند ذقنها على كفها، وتنظر إليَّ وتقول:

- يا شيخ (مِتْعَب)، عندي دجاجة تُعاني السُهاد...

* * *

3

بلا ضياء

"المصابيح تعمل بشكل صحيح ولكن المكان يبقى غارقًا في الظلام، حتَّى مصابيح الهواتف لا تضيء شيئًا، تعمل وتُضيء ولا تُظهر الموجودات، المصابيح جميعها أشبه ببقعة بيضاء صغيرة على ورقة سوداء كبيرة، فلا تزيح ظلمة ولا تُظهر خافية"

بعد العصر بساعة كنت مع (عبد الكريم) في غرفة صغيرة مُلحقة بمخزن كبير لبضاعته، والمكان يضج بأصوات وحركة عماله النشطة في شحن وتفريغ البضائع إلى ومن الشاحنات.

كان يرتدي ثيابه المعتادة، جلابية وعِمة، ولا يمكنك أن تصدق أنَّ هذا خريج فرع الكيمياء من أكبر الجامعات في بلدنا.

استمع إليَّ بدهشة واستغراب وأنا أقصّ عليه حوادث الأيام الماضية، وضحك بملئ فيه من حكاية (أم خليل)، وعن الزائر الغامض، قال:

- هل تعلم؟ لا أظن أنَّه يريد بك شرًّا.

عقَّبت على كلامه:

- أدرك ذلك، أرتباكه وفراره منّي في كل مرَّة، جعلني أدرك أنَّه لا يريد إيذاءي، ولكن ماذا يريد؟

حكّ رأسه من تحت عِمّته، وأصلح من وضعها، قال:

- أظنّ أنَّه يريد ما أراده (صابر)، يريد العون والمساعدة.

تساءلت:

- أتعني أنَّه قُتل ويريدني أن أبحث عن قاتله؟

-رُبَّما، ولكن ليس بالضرورة أنَّه قُتل، رُبَّما هنا حالـ...

قطع حديثه لصوت العمال المرتفع وتلاومهم الذي يتكرر بين الحين والآخر، وأكمل:

- هذا المكان لا يصلح للحديث، دعنا نذهب إلى قهوة أو مكان هادئ.

وافقته على الفور، واستأذنني في الانشغال عنّي لعدة دقائق، ونادى أحد عماله وأخذ يوصيه بعدة أمور تخص العمل، وشغلت نفسي في التفكير في هذا الأمر...

* * *

اتخذنا مقعدينا في ركن هادئ في مقهى في وسط المدينة، وبعد رشفات صغيرة من القهوة، قلت:

- أريد أن أسألك عن ما جئت لأجله.

ضحك (عبد الكريم)، قال:

- الآن أنت منهم.

استغربت جملته وسألته:

- منهم؟ مَن تقصد؟

أجابني وهو يبتسم:

- الذين لا يريدونني إلّا لشيء ما، لم تأت لزيارة صديقك (عبد الكريم) زيارة في الله.

ضحكت:

- هذه حال الدنيا، وزيارتك حاضرة في بالي، ولكن هذا الأمر استعجلها، فضربت عصفورين بحجر.

ابتسم وهو يأخذ رشفة من فنجانه:

- حسنًا، هات ما عندك.

ملت نحوه وأنا أقول:

- أخبرتني مرَّة إنك ورثت مكتبة أثرية كبيرة عن والدك.

وثب الحذر إلى عينيه وغلَّف كلماته وهو يقول:

- ماذا عنها؟

تجاهلت الأمر وقلت:

- هل من الممكن أن يكون قد ذُكر هذا الأمر في واحد من هذه الكُتب؟

نظر إليَّ وعيونه تفكر عميقًا، بعد هُنيهة أجاب:

- رُبَّما، لا استطيع القطع بذلك.

تلفَّت حوله كأنَّه يخشى شيئًا، قبل أنْ يميل نحوي ويتابع:

- عطية، لا تذكر أمر المكتبة مرَّة أخرى، لقد أخبرتك عنها من غير قصد منّي.

استغربت كلامه، وسألته:

- لماذا؟

أجابني:

- هذا العالم يمتلئ بالمجانين الذين يبحثون عن هذه الأشياء بكل السُبل والوسائل، وهم عل استعدادا لفعل أيّ شيء للحصول عليها.

دُهشت، تساءلت:

- أتعني المهتمين بالتاريخ والآثار؟

- هؤلاء أهونهم وأكثرهم تعقلًا، أتحدث عن الآخرين.

زادت دهشتي، ووجدت نفسي أهتف:

- آخرين! مَن تعني؟

- أعني المهتمين بالعالم القديم، وكل ما له علاقة به من علوم ومعارف، أنَّ أحدهم لا يجد حرجًا في تدمير مدينة بأكملها للحصول على شيء يمت بصلة للعالم القديم.

بعد فهم الأمر، شعرت بشيء من الإهانة، فاستنكرت:

- وهل ترى أنني أسير في الشوارع وأخبر الرائح والغادي بأنَّ (عبد الكريم) يملك مكتبة أثرية كبيرة؟

وضع سبابته على شفتيه، وهو يهتف:

- صَه، صَه، لا يسمعونك.

نظرت حولي في دهشة، ودارت عيناي في أرجاء المقهى شبه الخالي من الزبائن، وعدت أنظر إليه، وأقول:

- ماذا هناك؟ موضعنا بعيد عن الآخرين!

هزَّ رأسه في قنوط، قال:

- لم تستفد شيئًا مما حدث معك في مسألة (صابر)، لا زلت تنظر إلى العالم من زاوية الإنسان العاديّ البسيط، مَن يرغبون في تلك الأشياء لا يبحثون عنها بأسماعهم وأبصارهم.

لا أملك تعبيرًا سوى الدهشة لأقابل به كلامه، وأسأل:

- إذًا كيف يبحثون عنها؟

نظر إليَّ بعيون ساهمة، قال:

- حين ترى شيئًا يثير دهشتك وإعجابك، كيف تصفه لمَن لم يره؟

لم أجبه ولم ينتظر جوابًا، أكمل.:

- تنقله له والتأثر بما رأيته في صوتك، لقد ترك ما رأيته أثرًا عليك، وكل شيء تراه أو تسمعه أو تتنفسه يترك عليك أثرًا، ومَن أخبرتك عنهم يتتبعون هذا الأثار التي تأتي من العالم القديم أو ما يمت له بصلة ما.

نفيت بهزّ رأسي، قلت:

- ولكنني لم أر تلك المكـ... التي أخبرتك بأمرها.

أشار بإبهامة لصدره، قال:

- أنا رأيت ولمست وتنشقت وسمعت، ولكن الأثر أشبه بالجمر تحت الرماد، وأنت تقوم بدور المِسْعار[3].

لا أعلم ماذا أقول فلذت بالصمت، وشاركني إياه، وانشغلنا بتناول القهوة وتأمل ما حولنا، بعد برهة قال (عبد الكريم):

- لا أعلم، ولكنني سأبحث عنه، سيستغرق وقتًا، وسأخبرك بما عثرت عليه.

أدركت ما يعنيه وهزَزْت رأسي أوافقه، وذهب بنا الحديث عن (عوّاده) وأخبارها، قال (عبد الكريم):

- لقد اختفت تمامًا من القرية، وانقطعت أخبارها، لم تكن تظهر كثيرًا في القرية، وقليلًا ما تخرج من قصر (سعيد)، ولكن الناس تذكرها منذ أيام عيشها مع قومها من الغجر.

---

[3] الخشب أو الحديدة التي تُحرَّك بها النار.

سألته:

- ماذا يعنيك من أمرها؟ فيم يفيدك معرفة من أين جاءت بما ساعدت به (سعيد) لقتل ابن عمه (صابر)؟

أطلق زفيرًا طويلًا، صمت هُنيهة ثم تكلم:

- حين رأيت أنت جريمة مقتل (صابر) في القطار، ثم أخبرتني أنَّ شبح (صابر) جاءك البيت، وهذا الأمر لا يحدث أبدًا، الشبح يبقى قريبًا من المكان حيث أُزهقت الروح، أدركت أنَّ هناك شيئًا ما تتميز به ويجعلك مختلفًا عن الآخرين، لهذا جئتك البيت مستخدمًا أساليبًا أشبه بالسحر، ومع هذه الحكاية الجديدة صار لدي يقين أنك تُعد لأمر ما، الأمور لا تحدث صدفة وعشوائية، بل تقدير الله العليم الحكيم، ونقطة ضعفك أنَّك تدخل عالمًا لا تعلم عنه شيئًا.

ابتسمت لكلامه وهذه المقدمة الطويلة، أنا أُعد لأمر ما! لا أجد نفسي في الأحداث إلَّا كالغريق الذي يسعى لإنقاذ نفسه وإخراجها من التيار، ويعد نفسه أن لا تطأ قدمه موضعًا للماء، ولكن الماء يسعى إليه ويحاول إغراقه.

تابع (عبد الكريم):

- عوّاده هي إنسانة جاهلة من الغجر، ومن المحال أن يصل ما استخدمته لمساعدة (سعيد) ليديها عَرَضًا، هناك من أعطاها هذه الأشياء وأخبرها كيف تستخدمها، لماذا؟ أو أنها رأت مَن يستخدمها، وعرفت كيف يستخدمها وسرقتها منه.

قلت:

- وفيم يفيدك معرفة هؤلاء؟

عبد الكريم:

- لأنَّ استخدم هذه الأشياء خطر كبير ومفسدة عظيمة، أنت لا تعلم في أي جانب هؤلاء؟ جانب الخير أم الشر، أن تطالبني بتجاهل هؤلاء كمن تطالبني بتجاهل من يخطط لتدمير بلدك، باستثناء أنَّ الخطر في حالتنا أكبر وأعظم، الخطر هنا يستهدف عالمنا كُلّه.

كلام مخيف حقًا إن تحقق، أدعو الله أن لا يتحقق وأرجو من الله أن أكون خارج دائرة أحداثه.

سألته:

- ولكنك فقدت أثرها!

عبد الكريم:

- لا يزال في يدي خيط يحمل معه أملًا في العثور عليها.

- وهو؟

- جماعة الغجر التي كانت تتنقل معهم، سأبحث عنهم، رُبَّما عادت إليهم، أو يعلمون شيئًا عنها.

أطلقت تنهيدة طويلة وقلت:

- ماذا أقول لك؟ أسأل الله التوفيق لك.

عزمنا على الانصراف وقبل أن نفترق ذَكَّرته بما طلبته منه رمزًا وهزَّ رأسه إيجابًا وفهمًا، وبعد فوات الأوان تذكرت أنَّ أمامي ليلة طويلة، لقد تناولت القهوة بعد العصر..

* * *

بدأت ليلتي هذه بداية سيئة، أو تستطيع أن تقول إنها بداية غريبة، هناك مشكلة في كهرباء بيتي، كل شيء يعمل بشكل صحيح باستثناء الأضواء، وهذا غير دقيق أيضًا، المصابيح تعمل بشكل صحيح ولكن المكان يبقى غارقًا في الظلام، حتَّى مصابيح الهواتف لا تضيء شيئًا، تعمل وتُضيء ولا تُظهر الموجودات، المصابيح جميعها أشبه ببقعة بيضاء صغيرة على ورقة سوداء كبيرة، فلا تزيح ظلمة ولا تُظهر خافية، طبعًا بحثت عن الانحياز ولم أجده، تلمست طريقي في البيت وأنا انتقل من مكان إلى آخر بحثًا عنه، فلم أجده.

كان الظاهر في حديثنا هو وجود مشكلة في كهرباء البيت، ولكن مصابيح الهواتف جعلتنا نوقن أنها مسألة لا يعلمها إلَّا الله، أنا و(زينب) فقط مَن يملكان رأيًا مختلفًا عن أبنائنا، رأي احتفظنا به لأنفسنا.

أراد (أحمد) و(خديجة) منّي الاِتصال بفني كهرباء لإصلاح الأمر، ولكنني وبمساندة (زينب) قمت بتأجيل ذلك للغد.

قال (أحمد):

- هل هذا في بيتنا فقط أم في الحي كُلّه؟

مع ختام سؤاله اندفعنا نتحسس طريقنا إلى النوافذ، كان كل شيء حول منزلنا يعمل بصورة طبيعية، بيوت الجيران مُضاءة ونرى ما يبدو منها ظاهرًا تحت الأضواء، مصابيح الشارع بشكل صحيح، ويتسلل شيء من نورها ونور بيوت الجيران إلى حديقتنا فيُعطي ما فيها شيئًا من حقيقته.

باستثناء بيتنا الغارق في الظلام الدامس فكل شيء طبيعي، والغريب أنَّ الأضواء الخافتة القادمة من بيوت الجيران والشارع لا أثر لها في ظلمة بيتنا، كأنَّها تصل نوافذ منزلي فتتخلى عن مهمتها أو طبيعتها، فلا أرى شيئًا من ملامح أسرتي وهم وقوف بجواري عند النافذة، ولا أستطيع تمييز أشباحهم.

خديجة:

- المشكلة في بيتنا فقط.

بحزم.. بحسم.. قلت:

- غدًا اتصل بالمختص كي يأتي ويتحقق من أمر الكهرباء.

الحقيقة أننا جميعًا أدركنا أنَّ الأمر لا علاقة له بالكهرباء، ولكننا وبغير اتفاق منّا فضَّلنا هذا التعليل ووجدنا فيه راحة لنا، كما قلت لم يكن ما حدث يُعيق استخدام الهواتف والأجهزة الأخرى، الصعوبة الحقيقية هي في الانتقال من مكان لآخر، في معرفة طريقك لمكتبك، إلى حجرة نومك، إلى الحمام، تساؤل (زينب) و(خديجة) عن كيفية إعداد طعام العشاء، جعلني أطلب منهما الاكتفاء بعمل شطائر من الجُبْن، وكانت مغامرة طريفة لهما وهما يخبراننا بتفاصيلها ونحن نتناول الشطائر في الحديقة الصغيرة أمام المنزل في الضوء الخافت القادم من مصابيح الشارع.

من رحمة الله بنا أننا في فصل الصيف، وأدينا صلاة العشاء جماعة في الحديقة، في الجزء المرصوف بالأحجار ويدور حول البيت، ولصعوبة العثور على بُسُط الصلاة في هذا الظلام الذي يحتل بيتنا، فقد استخدمت

(زينب) و(خديجة) قميصي كبساط للصلاة، واستخدمت أنا قميص (معتصم)، وصلى (معتصم) و(أحمد) على قميص الأخير، ومع السلام الثاني عادت الأمور إلى طبيعتها، وسطعت أضواء المكتب والباب الأمامي للمنزل لتُظهر ما في طريقها، وتلقي بنورها علينا وعلى الحديقة، وارتفعت أصوات أبنائي مُبتهجة، وعلا صوتي مع (زينب) بالحمد لله والثناء عليه.

أسرع أبنائي إلى داخل البيت، في حين استدرت لأواجه (زينب) وأكملنا التسبيح، وكأنها جالسة على جمر، انطلقت (زينب) تقول:

- ماذا يحدث يا (عطية)؟

نظرت إليها وأطلقت تنهيدة طويلة، أجبتها:

- ليتني أعلم يا (زينب)، ليتني أعلم.

قالت والقلق في عينيها:

- لقد رأينا هذا من قبل يا (عطية).

نفيت قولها بهزِّ رأسي، ونظرت ساهمًا إلى كفي المبسوطتين، قلت:

- ليس الأمر نفسه يا (زينب)، هذه المرَّة اختلف.

تساءلت:

- اختلف! كيف؟

تمهلت لترتيب ما سأقوله لها في ذهني، أجبتها:

- ما حدث سابقًا هو انحياز للضوء، ينتقل تأثير الضوء من كامل محيطه إلى بقعة معينة من محيطه، ما حدث قبل قليل هو زوال تأثير الضوء تمامًا،

لم ينحاز ليضيء بقعة من المكان، بل زال أثره تمامًا، المصابيح صارت بقعًا بيضاء على صفحة سوداء.

لم تنبس ببنت شفة وهي تنظر إليَّ، قبل أن تسألني بصوت فيه غمّ:

- لماذا نحن يا (عطية)؟

ذكرني سؤالها بحديثي مع (عبد الكريم)، ومن جديد دعوت أن يُخيِّب الله الظن، وأن لا يصدق ما خمَّنه (عبد الكريم)، أجبتها:

- يُبتلى الناس على قدر إيمانهم. ولعل الله يرى فينا ما لا نراه في أنفسنا.

هزَّت رأسها ببطء وقنوط:

- لا أرى في أنفسنا ما يجعلنا أفضل من سوانا، حقًا أنَّ مخافة الله حاضرة في أقوالنا وأفعالنا ولكننا أسرة كأي أسرة طيبة في هذه الدنيا.

حاولت إخراجها من الغم والقنوط اللذين يعصفان بها، قلت:

- إنَّما الهمّ والغمّ والحزن وسوء الظن بالله من عمل الشيطان يا (زينب)، استعيذي بالله من الشيطان الرجيم.

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

نهضت ولملمت قمصاننا، واقترحت:

- ما قولك في كأس من عصير البرتقال؟

- أتصنعه أنت؟

- أنا! لا، ولكنني أعلم مَن سيعده لنا.

- لا تقل (أحمد).

- ومَن غيره، أنَّه لا يكف عن إزعاجي بمسألة سياقة السيَّارة.

- أنت لا تعاقبه، أنت تعاقبنا، لا أعلم من أين يأتي بطعم المرارة التي نجدها في العصير!

ابتسمت وقلت:

- حسنًا، لتُعدّه (خديجة).

بعد منتصف الليل تكرر ما حدث أثناء جلوسي في حجرة المكتب، أظلم كل شيء، نظرت إلى المصابيح، كانت على حالها، تعمل على أفضل ما يكون، الأمر الحسن أنَّ أسرتي نائمة ولن يشعروا بما يحدث، بحثت عن الانحياز، فلم أجده، تلمست طريقي إلى أجزاء البيت وأنا أبحث عن مواضع مفاتيح الإنارة، وأضغط ما أجده تحت يدي، من نافلة القول، أقول أنَّ المصابيح تعمل وتُضيء ويبقى المكان معتمًا كأنَّك لم تفعل شيئًا سوى رسم بقعة بيضاء على صفحة الظلمة، لم يطل الأمر هذه المرَّة، نصف ساعة أو أكثر قليلًا وعادت المصابيح تضيء المكان.

لا أعلم ماذا أقول؟ أشعر بالعجز التام، فأنا لا أجد تفسيرًا لما يحدث، لماذا يحدث؟ مَن وراءه؟ لماذا أنا دون سواي من البشر؟! كيف أواجهه؟ ما أفعل؟

*** * ***

4

ضيف بلا دعوة

"لم تفدني هذه الزيارة شيئًا، بل زادت من الحيرة والغموض والخوف، وأعادت طرح السؤال المُتكرر كيف سأواجه هذا؟ لن يكون دوري في هذه المسألة سوى دور الوسيط، ولكن الوسيط بين مَن ومَن؟ بين هذا الظل والخطر الذي يحذرنا منه ومن يستطيع فهم ما يحدث ومواجهته! والسؤال هنا: من هو القادر على فهم الخطر ومواجهته؟ حتمًا لست أنا.."

بعد ظهيرة اليوم وتناول الغداء وانصراف الجميع إلى مآربه، ذهبت إلى حجرة المكتب، أخذت مجلسي على الأريكة، وأنا أفكر بعمق في الأحداث السابقة، وأُستغرقت في أفكاري، حتى قطع تفكيري ظِل أسود، ظِل أسود لشخص ما ينتصب أمامي، رفعت رأسي.. لم يلفت انتباهي أنَّ الظِل يتعارض مع زاوية الضوء، ولا سواده الشديد، بل أنَّ الظِل منتصب أمامي كفجوة في الفراغ، أو لوح شديد السواد لا يعكس شيئًا من الضوء تم قصَّه على هيئة إنسان، ولكن الحقيقة أنَّه ظِل.. ظِل بلا جسد.. ظِل لا يتكئ على موجودات..

لم أتكلم أو أنبس ببنت شفة وأنا أنظر إليه، وأكون كاذبًا لو قلت أنَّ إحساسًا ما داهمني مما أراه، لم أشعر بشيء، لا الخوف ولا العجب ولا القلق، بل حتـ...

- كيف تسمعني؟

جاءني هذا السؤال بغتة، وأخرجني من حالة غياب المشاعر والاِنفعالات ليغمرني بالدهشة وأنا أقول:

- كيف أسمعك؟

- نعم، كيف تسمعني؟ لقد سمعت بكائي هناك وتسمع حديثي الآن، كيف تفعل هذا؟

- هل.. أتعني أنَّ لا أحد سواي يسمعك؟

- نعم، أنت من بين البشر تستطيع سماعي، كيف تستطيع ذلك؟

لا أعلم بما أجيبه، أنا نفسي لا أعلم جواب هذا السؤال، لهذا اكتفيت بإشارة الجهل بكتفي وأجبته:

- لا أعلم.

- لا تعلم! حقًا لا تعلم!

- صدقًا لا أعلم، وما يشغلني الآن هو أن أعلم ما يحدث؟ مَن أنت؟ ماذا أصابك وجعلك بهذا الحال؟ وماذا تريد؟ هل ما حدث الليلة السابقة له علاقة بك؟

لا أعلم ما إذا كان الصوت يصدر من الظل أم هو إحساس بهذا، فأنا انظر إلى بقعة مظلمة سوداء حدودها تصنع هيئة بشرية، سمعت الظل:

- أسئلة كثيرة، وأسئلتي كذلك، لا تعلم كم كانت دهشتي حين أدركت إنك تسمع بكائي، لم أصدق أنَّ هناك بشرًا يستطيع سماعي، بل حاولت الحديث للناس بالإشارة، ولكن ظهوري لهم وما يصاحبه من تأثير على الضوء، يجعلهم يخافون ويفزعون ويفرون وهم يظنونني من الجِن أو عالم الأشباح و...

قاطعته:

- حقًا، لماذا هذه المرَّة لا يحدث انحياز للضوء؟

الظل مدهوشًا:

- انحياز للضوء! رُبَّما هذا هو الوصف الدقيق لما يحدث، هل تعلم أنَّه رغم دراستي للفيزياء لم يخطر ببالي هذا المصطلح، انحياز الضوء، حقًا أنَّه

وصف صحيح دقيق، وبخصوص سؤالك فالجواب هو أننا لا نملك القوة بعد لعمل انحياز لضوء قوي كضوء الشمس...

قاطعته وأنا أقول بدهشة:

- أنتم! هل أنتم كُثر؟

الظل:

- ليس بعد، ولكن عمّا قريب سنصبح كذلك، وهذا هو الخطر...

قاطعته:

- الخطر! ما هو الخطر؟

أجابني:

- إجابته هو إجابة سؤالك السابق الأخير، هل ما حدث الليلة الماضية له علاقة بي، والجواب نعم، أنا مَن فعلت ذلك...

- لماذا؟

- لترى عينة مما سيصير له عالمنا عمًّا قريب.

- أتعني..

- نعم، يذهب النور ويحل الظلام، وهذا أهون الشرور القادمة.

- أهون الشرور القادمة! هل هناك المزيد؟

- الكثير، ما يحدث الآن هو إعداد العالم ليصير مملكة الظلام، وبعدها يأتي أهل الظلام أنفسهم...

- و.. وأنت منهم.

جاء صوت الظل مغمومًا:

- بل أنا خادمهم ولا أملك من أمر نفسي شيئًا.

- و.. وكيف... و.. ما تفعله..

- أنا أحاول التكفير عن جريمتي، والبحث عن من ينقذني وينقذ العالم، أنا لا أستطيع فعل شيء ولعلك أنت أو سواك تستطيعون.

- كيف نستطيع ونحن لا نعلم ما نواجهه ولا كيف نواجهه، ولا أعلم ما أنت وكيف أصبحت هكذا.

- سأخبرك بكل شيء ولكن يجب أن أنصرف الآن.

استنكرت رغبته هذه وقلت مُحتدًا:

- تنصرف الآن! أنت لم تخبرني بشيء بعد!

الظل:

- يجب أن أذهب الآن.

لم يهتم باِعتراضي ورأيته يغوص في الجدار الفاصل عن باقي المنزل، وزفرت في ضيق، لم تفدني هذه الزيارة شيئًا، بل زادت من الحيرة والغموض والخوف، وأعادت طرح السؤال المُتكرر كيف سأواجه هذا؟ لن يكون دوري في هذه المسألة سوى دور الوسيط، ولكن الوسيط بين مَن ومَن؟ بين هذا الظل والخطر الذي يحذرنا منه ومن يستطيع فهم ما يحدث ومواجهته! والسؤال هنا: من هو القادر على فهم الخطر ومواجهته؟ حتمًا لست أنا..

نهضت إلى مقعدي خلف المكتب، وقمت بتشغيل حاسوبي المكتبي، سأبحث عن هذا الأمر، وهذه المرَّة سأُبقي أبنائي بعيدًا عن كل شيء، لن أطلب العون من (أحمد) أو (خديجة).

بهمة بدأ البحث التقليدي فلم يقدني لشيء سوى بعض مواقع القصص والروايات التي لا تهمني في شيء، استخدمت أحد تطبيقات البحث باستخدام الذكاء الاصطناعي، فعرض نظريات وأساطير لم تفدني بشيء.

والعمل؟ ماذا أفعل؟ هنا طاف (عبد الكريم) في خاطري، هل أتصل به؟ لكنه لو عثر على شيء لأتصل بي، رُبَّما لا يزال يبحث! أو لعله مشغول بأمور أخرى، نهضت لأقف أمام النافذة انظر للحديقة والحي الظاهرة مبانيه من أعلى صف الأشجار المجاورة للسور الحديدي المحيط بحديقة منزلي، وتوفر لنا خصوصية ملائمة، كل شيء ظاهر وواضح تحت ضوء الشمس وقد اقترب دخول العصر، تشعر أنَّ ضوء الشمس يطرد الخوف والأوهام والخرافات وحتَّى الأفكار الحمقاء، وأنَّ الظلام يأتي بهم جميعًا.

ها أنا من جديد أجد نفسي في حادثة غريبة جديدة، ولا أجد مَن أستعين به أو استشيره، ومن جديد أسأل عن شأني بهذا الأمر، كلا، هذا السؤال لن يفيدني شيئًا، سأجد نفسي في هذا الأمر رغم أنفي، رغبته أم بغضته، سعيت إليه أم نأيت عنه، وعادت ذاكرتي مرَّة أخرى إلى لقائي بـ (عبد الكريم) والحديث الذي دار بيننا.. ماذا أملك أنا؟ ما الذي يميزني عن الآخرين ويجعلني مختلفًا عنهم؟ رأسي الأصلع؟! شَّاربي؟! بطني الكبير؟! بُنيَّة جسدي الضخم الذي يجعلني شبيهًا بـ "الفُتوَّة"؟!

قاطع خواطري صوت أذان العصر من المسجد القريب، سأجمع أسرتي ونصلي العصر وأذهب إلى واحتي، لا رغبة لديّ في الخروج من المنزل اليوم، وسنقرر كيفية قضاء الإجازة الصيفية، لقد انقضى منها أسبوعان ولم نفعل شيئًا مما اعتدنا فعله كل عام...

*** * * ***

لم يكن جابر سوى صورة أكبر عمرًا منّي، دون مظاهر البدانة الخاصة بي، وأخفت طاقيته -التي لا يضعها عن رأسه- الصلع في مقدمة رأسه، ويرتدي الجلابية، ويحدثني ونحن جلوس على الأرض في فناء منزل والدي - رحمه الله - تحت ظلال شجرة ليمون، وأمامنا صينية الشاي في ضحى يوم حار، ومنزلنا القديم يقابلنا شامخًا بجدرانه البيضاء وأناقته القديمة، قال (جابر) وهو ينشّ الذباب:

- يجب أنْ تذهب للاطمئنان على (عدنان)، منذ شهر وأكثر وأنا لا أستطيع الاِتصال به.

نظرت إليه بدهشة، قلت:

- ولكنني كُلَّما أخبرتك أنني لا أستطيع الاِتصال به، كنت تقول إنَّك تحدثت معه وهو بخير حال!

أجابني:

- كنت أتمنى أن يجيبني، فلا يكون هناك داعيًا لبثّ القلق فيك، ولكن الآن لم يعد هناك ما يدعو للتأجيل أو التأخير، نريد الاِطمئنان عليه وعلى زوجته وأبنائه.

نشّشت الذباب وأنا أقول بقلق وعتاب:

- ما كان عليك إخفاء هذا عني، لقد ضاعفت قلقي بحديثك هذا، وترتيب الذهاب إلى هناك يحتاج أسبوعين إلى شهر، ورُبَّما سأقضي أسبوعًا هناك على الأقل، وقد تكون الإجازة شارفت على الاِنتهاء، ولن أستطيع اصطحاب (زينب) والأولاد معي.

جابر:

- لا حاجة لاصطحاب العيال، سيبقون هنا، وسأحرص على قضائهم وقت طيب وممتع، وسأصطحبهم مع عيالي إلى البحر، ورؤية بعض الأماكن الجميلة، بلاد الأجانب لا تلائم عيالنا.

نظرت إلى حظيرة المواشي في الركن البعيد من فناء المنزل، والجاموسة المنهمكة في إلتهام العشب أمامها، من الأشياء الجميلة التي يتميَّز بها الريف هو "العشوائية المنظمة"، الفناء ممتلئ بأشجار النخيل والليمون والبرتقال والتين والرمان والخوخ، عشوائية تتراص في خطوط منظمة، واحتلت حظيرة المواشي جزءًا من الركن البعيد، تشعر أنَّ وجودها هام للشكل العام للبيت الريفي، وليس لحاجة تستوجبها، كان منزل أبي - رحمه الله - هو جزء من نصيبي من ميراث أبي، بعد أن تنازل (جابر) و(عدنان) عن نصيبيهما فيه، وبعد انتقالي للمدينة، أخذ (جابر) على عاتقه العناية به

وإدارة كل ما ورثته، وكان نِعم مَن أخلفت، فنحن بفضل الله أولًا ثم براعته في التجارة والإدارة، أعيش مع أسرتي في رفاهية ورغد من عائدات أملاكي التي ورثتها وقد أنماها (جابر) حتَّى بلغت أضعاف ما كانت.

أخذت أُقلِّب الأمر من جميع الوجوه، قبل أن أقول في حسم:

- سأشرع الآن في الإعداد لذهابي.

جابر:

- لن تستطيع فعل شيء اليوم، غداؤكم في بيت حميك كبير البلد، وطعام العشاء في بيتي.

كان هذا أكثر ما يزعجني في زيارة بلدتي، فالأسبوع الأوَّل ينقضي والغداء في بيت فلان والعشاء في بيت فلان، والاعتذار يعني إهانة المُضيف، والمصيبة أنَّك لا تستطيع الفرار، لأنَّهم قاموا بترتيب الدعوات بينهم، والدعوة يتم تقديمها فور الانتهاء من تناول الدعوة الحالية، لضمان حضور جميع الحاضرين للدعوة التالية، فلا تستطيع التنصُّل.

هززت رأسي أوافقه، وأدرك هو ما يدور بخلدي، فابتسم وقال:

- هذه عاداتنا وتقاليدنا، لا تجعل المدينة تُنْسيك هذا.

أجبته بسرعة:

- أنني لا أغيب عنكم أعوامًا في بلد آخر، إن هي إلّا بضعة شهور أغيبها، وتتخللها زيارات لكم بين الحين والآخر، فلم الحاجة لإثقال النفس بأمور لا أرى داعيًا لها.

ضحك قبل أنْ يعقِّب على كلامي بجدية وحكمة:

- هذه المناسبات الصغيرة نسعد ونفرح بها أكثر من الضيف نفسه، لأنَّها تخرجنا من طوفان الحياة والركض فيها، ونجد في هذه المناسبات فرصة للراحة والاجتماع والترفيه عن النفس وتبادل الأخبار.

أزعجتني الإشارة إليَّ بالضيف، ولكنها الحقيقة فأنا أقيم بينهم مع أسرتي أسبوعين أو ثلاثة في العام، ولم ينتبه (جابر) لهذا وواصل ضاحكًا:

- ثم أنَّ غيابك على مستوى الحمام والوز والبط والدجاج، أنت لا تغيب غيبة تثقل الكاهل بخروف أو عِجْل.

ابتسمت لكلامه ونقلت الحديث إلى موضع آخر، قلت:

- هل رأيت (جْعيْدي)؟

حلَّت الدهشة محل السرور، وسألني هاتفًا:

- ألم يأت لزيارتك؟

هززت رأسي في أسف، أجبته:

- نعم، لم يأت لزيارتي، ولم يعدني حين مرضت قبل فترة.

كرر (جابر) في دهشة:

- جْعيْدي!

و (جْعيْدي) لمن لا يعرف هو صديق العمر، ورفيق الدرب حتَّى فرَّقتنا الحياة، فذهبت إلى الجامعة واتجه هو للعمل في تجارة المواشي، وهو نموذج لرفيق السوء من وجهة نظر أبي - رحمه الله - ومن المغضوب عليهم، وكنت أراه مظلومًا في الحياة، بعض الناس ترى الدراسة منهجَ حياة وبعض الناس يرى الدراسة وسيلة لفهم وعيش الحياة، و(جْعيْدي)

من الفريق الثاني، يجب أن ندرس لنفهم مُحيطنا وما حولنا ونتعامل معه بطريقة ملائمة، أنَّه لا يرغب أن يصير طبيبًا أو مهندسًا، لذا يكتفي من الدراسة بالوجه العام لها، الرياضيات يكفينا منها القيام بالعمليات التي نحتاجها في الحياة كالجمع والطرح والضرب والقسمة، أما التفاضل والتكامل والمتوالية الحسابية والهندسية فهي سَفْسطة لا داعي لها، وقس على هذا باقي العلوم، لا حرج في تناول ثمرة تتدلى خارج الفناء، باعتبار أنَّ هذه الشجرة تعدَّت على الحق العام، وبالتالي أصبحت من الحق العام، وشرب الماء حق مباح لا يحتاج استئذان، طالما أنه لا يوجد نساء في الأمر أو اعتداء على الحُرمات، طبعًا قوانين (جْعيْدي) في الحياة تحتاج مجلدات ضخمة لشرحها ووضع تعريفات دقيقة للحقوق والمُحرمات، فالجريمة هي كل عمل يؤدي لتدخل الشرطة ودخول السجن، أمّا ما يؤدي للغضب وحمل الهراوة فهو سوء فهم ناتج من عقول صغيرة، وخير مثال هو اختصار الطريق وعبور الحقول المزروعة، لماذا يغضب أصحاب الحقول؟ أنَّه لا يسرق، أنَّه "يعبر" فقط، لماذا يغضب أصحاب الحقول حين يصطاد في أراضيهم؟ أنَّها ليست طيورهم وإن كانت أراضيهم، (جْعيْدي) يعيش على الحافة، بين الخطأ والصواب، وهذا يجعل كل شخص ينظر له من زاويته الخاصة، وهي غالبًا "(جْعيْدي) في الجانب الخطأ".

هذه قوانين (جْعيْدي) التي أثارت غضب الجميع ومنهم أبي - رحمه الله - الذي كان يرى في (جْعيْدي) آفة يجب القضاء عليها، ويحذرني كل حين من مرافقته أو من رؤيتي برفقته.

كنت أكثر دهشة واستغرابًا من أخي (جابر) لهذه القطيعة، (جُعيْدي) لا يترك فرصة ينزل فيها المدينة إلّا ويأتي لزيارتي، ماذا حدث؟ ماذا أصابه؟ وضعت تساؤلاتي في سؤال، سألت:

- أهو بخير؟

أجابني بعبوس:

- على ما يرام حين رأيته آخر مرَّة.

عزمت على المرور على بيته عصر اليوم لأطمئن على أحواله، ونظرت إلى ساعة الهاتف، كان هناك وقت طويل إلى حين حلول الغداء، ولكن التقاليد تحتم وجود المَدعو قبل ساعة على الأقل من موعد الطعام، يجب الاغتسال ثم المضيَّ هناك، كان الجميع قد غادر، (أحمد) و(معتصم) ارتديا الجلالِيب ووضعا الطاقيات وقد شعرا أنهما من أهل البلد وذهبا مع أبناء عمهما لمشاهدة البلدة ثم لقائنا في منزل جدهم، و(زينب) ذهبت إلى منزل والدها ومعها (خديجة)، للمساعدة في إعداد الغداء لنا، وهذا الأمر مُحال، وسينتهي بهن المطاف جلوسًا على المقاعد وتناول الشاي أثناء الحديث مع نساء الدار والجيران وهن يُعدِدْن الغداء.

نهض (جابر) من مجلسه وهو يقول:

- أعدد نفسك للذهاب إلى بيت حميك، وسألتقيك عند بيتي لنذهب معًا.

وافقته وأنا أعيد الكؤوس إلى صينية الشاي، وانصرف هو في حين نهضت أنا متجهًا إلى داخل البيت.

* * *

5

عودة الظل

"- ها أنت أخيرًا، أين ذهبت؟ لقد بحثت عنك كثيرًا.
قاطعني الصوت ورفعت رأسي لأجد الظل واقفًا أمام المكتب بين الأرائك بعد المنضدة القصيرة، اعتدلت في مكاني، لقد نسيت كل شيء عنه في الأيام الماضية، لذلك وجدت نفسي أهتف:
- أنت!"

غرقت حتَّى أُذنيَّ في الإعداد للسفر إلى (لندن)، وتجهيز الأوراق ولم تكن هناك حاجة للذهاب إلى السفارة، فكل شيء يتم من خلال الموقع الرسمي الخاص بها، وكل ما أحتاجه لإدخال البيانات للموقع متوفر في مكتبي، بدءًا من الحاسوب والإنترنت والماسح الضوئي حتَّى قلم الهاتف الذي قد احتاجه للإمضاء، ونسيت كُلّ شيء سوى ما أقوم به، لذلك تجدني في حجرة مكتبي في منزلي في المدينة، أبحث في أدراج المكتب عن شيء ما لا أتذكره الآن، آه.. تذكرت.. أبحث عن الشريط اللاصق و...

- ها أنت أخيرًا، أين ذهبت؟ لقد بحثت عنك كثيرًا.

قاطعني الصوت ورفعت رأسي لأجد الظل واقفًا أمام المكتب بين الأرائك بعد المنضدة القصيرة، اعتدلت في مكاني، لقد نسيت كل شيء عنه في الأيام الماضية، لذلك وجدت نفسي أهتف:

- أنت!

- نعم، أنا، لقد بحثت عنك كثيرًا، وجئت بيتك مرات كثيرة، وفي إحداها كدت أن أصيب الرجل الذي على البوابة بسكتة قلبية.

- ذهبت مع أسرتي لزيارة قريتي، وذلك الرجل هو عم (حسني) ويقوم بنطارة المنزل أثناء غيابنا وإطعام الدجاج والبط.

- حسنًا، لا تعلم مقدار سعادتي بالعثور على شخص يسمعني ويحدثني دون أن ينتابه الخوف والرعب.

قعدت في مقعدي وأنا أقول:

- أنت لم تخبرني بشيء عنك، ما هي حكايتك؟ ماذا أصابك؟ ما هو الخطر الذي حدثتني عنه؟ وكيف نواجهه؟

الظل:

- هذا يحتاج إلـ...

قاطعنا صوت طرقات على باب المكتب البعيد وصوت عم (حسني) ينادي باسمي، نهضت من مقعدي وأنا أقول:

- سأرى ماذا يريد؟

وأشرت نحو الباب الصغير خلفي وإلى يساري، أردفت:

- تستطيع أن تتوارى في حمام المكتب.

ولكنه اختفى في الحائط كقطرة ماء سقطت على ثوب، وسرت نحو باب المكتب الخاص بالضيوف وفتحته، ونظرت إلى عم (حسني) العجوز وجسده الهزيل وبشرته السمراء وعمَّته الضخمة على رأسه، والتي تجعلني لا استبعد أنَّ الشرطة تستوقفه بين الحين والآخر لتتفحص ما فيها، دارت هذه الخاطرة في رأسي وأنا أسأل:

- ماذا هناك يا عمّ (حسني)؟

مدَّ يده بهاتفه وهو يقول:

- اختفى "التلفزيون" يا أستاذ (عطية).

وعم (حسني) من الجيل القديم، ولكنه لم يتجاهل التقنيات والأساليب الحديثة، ولكنَّه "يجاهد" في التعامل بها والعيش معها، وهو يستخدم هاتفين، الأوَّل عتيق ذو أزرار ويستخدمه كهاتف فقط، والثاني هاتف حديث

ويستخدمه كتلفاز فقط، والتلفاز هنا هو "يوتيوب" أو كما ينطقه عمّ (حسني) بالقول: "يتوب".

ويستخدم مصطلحات قديمة للتقنيات الحديثة، فالإرسال ضعيف أو لا يوجد إرسال يعني إنقطاع خدمة الإنترنت، وصندوق البث والتوزيع هو "الاريال".

وقام أحد الأذكياء بإعداد الهاتف ليناسب استخدامات عم (حسني)، ولكن يحدث بين الحين والآخر أن تحدث "لخبطة" كما حدث الآن، وهنا لا يجد عم (حسني) حرجًا من الخروج إلى الشارع وسؤال أحد المارّة في أن يقوم بإصلاح "اللخبطة".

و"اللخبطة" هنا انتقال رمز تطبيق "يوتيوب" من الواجهة الرئيسة إلى المجلد الوحيد فيها، قمت بإعادته إلى الصفحة الرئيسة وأعطيته الهاتف وسط بحر من الشكر والدعاء بالخير والبركة وطول العمر، أغلقت الباب وعدت لأجلس على الأريكة وعاد الظل، ولم أكبح سؤالي:

- كيف تفعل هذا؟

الظل:

- ماذا تعني؟ عبور الحائط؟

أجبته:

- نعم.

الظل:

- الانتقال عبر المكان واختراق الحواجز والحدود هو سبب معاناتي.

أشرت له بالجلوس وأنا أقول:

- اجلس، واخبرني قصتك كاملة ومن البداية.

جاءني صوت الظل يضحك، ويقول:

- أجلس؟ لقد نسيت هذا الأمر تمامًا!

نظرت إليه في دهشة، سألت:

- نسيته! ألا تتعب من الوقوف؟

الظل:

- الوقوف؟ لقد نسيته أيضًا.

سألته والدهشة لا تفارقني:

- إذا بماذا تشعر؟ كيف تفعل ما تفعله؟ أنني أراك تسير من موضع لآخر.

الظل:

- رُبَّما تراني كما تقول، ولكن شعوري هو شعور من يطفو في الماء، انتقالي هو رغبة، ورُبَّما أقوم بالحركة بحكم العادة وليس الحاجة.

تأملت في كلامه هُنيهة، قبل أن أقول:

- لم تخبرني قصتك.

الظل:

- سأخبرك بها، وكيف بدأ الأمر.

وبدأ يحكي قصته.. من البداية..

* * *

6

البحث عن المجد

"هناك عوالم وحضارات نشأت واندثرت قبل ظهور عالمنا الحالي وحضارته، عوالم متطورة تستخدم أساليب علمية مذهلة، عوالم تركت وراءها عشرات الشواهد عليها، الأهرامات بأسرارها والمسلات بغموضها والمباني الأثرية الأخرى في بقاع الأرض والتي تم بناءها ونحت أحجارها بدقة هندسية تعجز عنها الأساليب العلمية الحديثة"

اسمه (محمود) طالب متفوق في قسم الفيزياء في جامعة (...)، تخرج من الجامعة بتفوق لم ينافسه عليه أحد، ووجدته جامعته كنزًا لا يجب التفريط فيه، وقامت بتعيينه مُعيدًا فيها، ووجدها هو فرصة للعمل وإكمال دراسته العليا، وبدأ يجتهد في هذا الأمر.

هنا نجد أنَّ (محمود) اتخذ منحى غريبًا نسبة لعلم الفيزياء، فبدلًا من الوقوف حيث وقف علم الفيزياء والسير معه أو به إلى الأمام، نجد أنَّه يسير به إلى الوراء، إلى الماضي السحيق.. جدًّا.

عاش (محمود) حياته عاشقًا لفكرة العوالم القديمة، مؤمنًا بها، هناك عوالم وحضارات نشأت واندثرت قبل ظهور عالمنا الحالي وحضارته، عوالم متطورة تستخدم أساليب علمية مذهلة، عوالم تركت وراءها عشرات الشواهد عليها، الأهرامات بأسرارها والمسلات بغموضها والمباني الأثرية الأخرى في بقاع الأرض والتي تم بناءها ونحت أحجارها بدقة هندسية تعجز عنها الأساليب العلمية الحديثة، وأشياء كثيرة غيرها، جعلت (محمد) ينغمس حتَّى النخاع في البحث عن كل ما له صلة بتلك العوالم القديمة، لا يترك كتابًا أو محاضرة أو إشارة لتلك العوالم واحتمالات وجودها إلَّا وسعى إليها، يبحث فيها، يدقق في تفاصيلها، يقلب وجوهها، أنَّه لا يصدق أنَّ من قام بعمل هذه الأشياء هو نفسه من استخدم السيف والقوس وركب الحمار والفرس، هناك تنافر شديد، تضاد لا يقبل العقل اجتماعه، والسؤال هنا لماذا؟ لماذا يشغل (محمود) فكره ووقته بهذه العوالم لو فرضنا أنها كانت موجودة حقًا؟

يؤمن (محمود) أنَّ أساليب العوالم القديمة أفضل من أساليبنا وأكثر قوة وأفضل أمانًا، وهو يسعى لاكتشاف هذه الأساليب وإعادة استخدامها، الأهرامات ليست مقابرًا للملوك بل هي مصانع للكهرباء والطاقة، والمسلات هي أعمدة إنارة، ولكنها لا تضيء كما تفعل مصابيح شوارعنا المسكينة، بل كما تفعل الشمس، أي تضيء المدن وبيوتها دون الحاجة لمصابيح خاصة بكل بيت، وهكذا.

المشكلة التي واجهت (محمود) هي غياب المعلومة الكاملة، بل يمكننا القول أنَّ المشكلة هي حضور أقل من عُشر المعلومة، كل إشارة لتلك العلوم القديمة تكتفي بكلام مُبهم، ومعلومات شحيحة عن تلك الأساليب القديمة، مما يجعلها بلا فائدة تقريبًا، فمثلًا الحديث عن الأهرامات كمصانع للطاقة، يكتفي بذكر مادة تم طلاء الأهرامات بها دون تحديد ما هي، وما عمل الطبقة الخاصة بقمة الهرم؟ وما علاقة مواقع النجوم بتصميم الأهرام؟ وما علاقة المجال المغناطيسي للأرض بها؟ كما ترى هي معلومات يصعب تحديدها وجمعها للوصول إلى حقيقة ما، سوى سعة علم صانعها وعدم وجود صدفة في تصميم بنائها، مما يجعل النفس تميل لإنكار الأمر الذي يسعى إليه (محمود)، ولكن (محمود) يثق بذكائه وعلمه وسوف يصل للحقيقة الكاملة يومًا ما.

هنا تشاء الأقدار أن تذهب بـ (محمود) بعيدًا، أثناء قرائته لأحد الكتب التي تتحدث عن العوالم القديمة وأساليبها، يجد (محمود) هذه العبارة "وكثير من السحرة عبر العصور وحتَّى الآن، يستخدمون هذه الأساليب لإبهار

الناس وإظهارها على أنها قدرات سحرية خاصة بهم"، هنا يقرر (محمود) دخول عالم السحر، كلَّا لم يذهب إلى العالم الأسود الذي يدور حول "جلب الحبيب" و"قطع الأرزاق" والهدهد اليتيم حيث يخسر الإنسان دينه وماله ونفسه ودنياه وآخرته، كان أكثر ذكاءً بكثير من أهل هذا الهُراء جميعًا، لأن كان السحر حقيقةً فإنَّ من رحمة الله بالناس أنَّ الغالبية الساحقة ممن يعملون فيه هم من النصابين والكذابين، والفئة النادرة الصادقة هي من فئة من غضب الله عليهم في الدنيا والآخرة ولا تُقبل منهم توبة والقتل هو جزاؤهم المحتوم، امَّا من يأتيهم فبشره بخسران مبين.

محمود ذهب إلى عالم السحر الاستعراضي الذي يهدف إلى إبهار العوام، مثل قص الشخص إلى نصفين والطيران في الهواء وتحريك الأشياء عن بعد، وإخبار أشخاص ممن يحضرون هذه العروض عن أسمائهم وعناوينهم وأشياء أخرى، واكتشف الكثير عن هذا العالم، وأنَّ جميعه هو خدع يقوم الساحر بترتيبها مع آخرين يساعدونه، ولكن بعد رحلة بحث شاقة استغرقت ما يربو عن العام، وجد ضالته في ثلاثة أشخاص يكتنفهم غموض كثيف، الساحر (هاجارد) من (نيويورك) في الولايات المتحدة الأمريكية والساحر (ميلونفيسكي) من رومانيا والساحر (أنطوان) من البرازيل، هؤلاء الثلاثة يضعون شروطًا صارمة لمن يرغب في حضور عروضهم السحرية تبدأ بضرورة إرسال رسالة تُخبر بالأشخاص الراغبين في حضور العرض السحري، وفي حالة الموافقة يتم إبلاغ المُرسِل بالشروط وأهمها تحديد العرض السحري الذي يرغبون في مشاهدته، ودفع

ثمن تذكرة الدخول - وهو باهض بحق - وعدم اصطحاب الهواتف وآلات التصوير والأطفال، والحضور عند الموعد المحدد وإلَّا خسر الشخص مشاهدة العرض وما دفعه، ويقوم الراغبون في مشاهدة العرض عند قدومهم بتوقيع وثيقة يلتزمون فيها بالكتمان وعدم الإفصاح عن ما يروه أو ما يسمعونه، ويُخلي مسؤولية القائمين على العرض من أي عواقب قد تصيب الراغبين في حضور العرض السحري، طبعًا الخطوة الخاصة بالوثيقة لم تنجح دائمًا، وإلَّا كيف بلغ الأمر (محمود) وسواه؟ الأمر المخيف أنَّ جميع مَن لم يغلقوا أفواههم جيِّدًا، غادروا الحياة بطرق مخيفة تثير الذعر في النفس، وبعضهم لم يُعثر على جثته أو على شيء يخبر أنَّ شخصًا كهذا عاش يومًا في هذه الحياة، والتحقيقات في هذه الأحداث انتهت إلى لا شيء.

عزيزنا وصديقنا (محمود) كان أشجع من أن توقفه تلك التُرَّهات، لا شيء يقف في طريق العلم والحصول عليه، واختار الساحر (هاجارد)، لماذا (هاجارد)؟

كان هناك شيء من التعقل منع (محمود) من الاِنجراف مع هذا الأمر، ولا أدري ما هو التعقل الذي يتحدث عنه (محمود)؟! المهم وجد (محمود) أنَّ مدينة (نيويورك) مدينة صاخبة ونمط الحياة العصرية سائد فيها، وهناك شرطة وأمان ودولة قويّة، ولا يمكن أن تحدث "أشياء خطيرة" عند أنف شرطة (نيويورك) الصارمة، وهو يجيد الإنجليزية ورُبَّما قد يحصل على

إحدى الشهادات العليا منها، في الحقيقة لا تدري من أين يأتي (محمود) بمعلوماته هذه؟! مما لا شكّ فيه أنَّه يمهّد الطريق لقدره.

قام بإرسال رسالة بالبريد الإلكتروني إلى عنوان المسرح الذي يقيم فيه السَيِّد (هاجارد) عروضه، وأخبر عن رغبته في حضور أحد عروض السَيِّد (هاجارد) السحرية، بعد أسبوع جاءه الرد الغريب يسأله أسئلة شخصية كثيرة وعمَّا يرغب في مشاهدته وأن يكون دقيقًا في وصفه، بكل براءة أجاب أنَّه يرغب في مشاهدة العروض السحريَّة بشكل عام والاستمتاع بها، وقد تسنح له الفرصة في لقاء السَيِّد (هاجارد) شخصيًا، تأخَّر الرد وتوقع (محمود) الرفض لأنَّه أخطأ في إجابة السؤال الأخير، جميع مَن يرغبون في حضور هذه العروض يأتونها لغرض محدد يفصحون عنه، أمّا إجابته فكانت عامة، ولكن جاء الجواب بالقبول مع تفاصيل تذكرة الحضور، وفيها التاريخ واليوم والساعة وثمن التذكرة الذي كان مقبولًا وليس باهظًا كعادة تلك العروض، امَّا الأمر الأكثر إثارة للدهشة والغرابة هو دعوة رسمية من السَيِّد (هاجارد) لاستضافته في بيته، وطُلب من (محمود) إرفاق نسخة منها مع أوراقه المُقدمة للسفارة الأمريكية، طار فرحًا بهذه الرسالة التي تبشره بالكثير وتختصر عليه الأكثر، وزاد غبطة بعد يومين بوصول رسالة من المصدر نفسه وفيها تفاصيل تذكرة طيران ذهابًا وأيابًا على حساب المُضيف، مع سيارة تنتظره فور خروجه من المطار لتقلّه إلى منزل المُضيف، فيما بعد أدرك (محمود) أنَّه يُجذب كما تُجذب الذبابة إلى النبتة الآكلة الحشرات، ويزداد الأمر اِدهاشًا بحصوله على تصريح الدخول إلى

الولايات المتحدة الأمريكية من السفارة الأمريكية في أقل من أربع وعشرين ساعة، وفسَّر (محمود) هذا ببركة دعاء الوالدين والنيَّة الصافية وتفوقه العلمي -الذي لا يعلم به سوى محيطه المحدود- ورُقي وحضارة الشعب الأمريكي الذي يقدِّر العبقرية ويتشممها من المسافة بين قطبي الأرض.

هنا يجب أن لا نظلم (محمود)، لأننا نرى الأحداث من بعيد، كما يشاهدها المتفرجون على مباراة ما، فيرون الصورة الكاملة ويرون أنَّ اللّاعبين حُمقى وأغبياء ويرتكبون الكثير من الأخطاء، في حين أن اللاعب نفسه تكون الصورة محدودة وينهكه اللعب ومنافسة الفريق الآخر.

المهم.. أخذ (محمود) إجازة شهرين من الجامعة، وفي ليلة شتاء باردة استقلَّ الطائرة إلى (نيويورك) في رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة، ليهبط في مطار (جون إف كينيدي) والمشهور بـ (جي. أف. كي) في الساعة الحادية عشرة ليلًا، هنا نلاحظ ما يحدث حين يخوض الإنسان تجربة لأوَّل مرَّة، فهو يتذكرها كاملة واضحة، وتجربة (محمود) هنا هي السفر إلى الخارج ورؤية أوَّل بلد أجنبي تطأه قدماه.

يخرج (محمود) من المطار وهو مستمتع بمشهد تساقط الثلج وفخور ببرد بلاده الذي حذَّره من شتاء الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ينظر في هاتفه إلى صورة السائق الشاب بثيابه الرسمية والسيارة الفارهة من طراز (مرسيدس بنز أس) اللّذين سيقلّانه لمنزل مُضيفه، ويجدهما عند بوابة المطار، فيسرع إليه السائق حاملًا مظلة تقي (محمود) من الثلج، ويأخذ منه السائق حقيبته الوحيدة ويفتح له الباب الخلفي ليجلس في المقعد

الخلفي ملكًا، ويضع السائق متاعه في الحقيبة الخلفية ويسرع ليقود السيَّارة إلى وجهتها، ويترك (محمود) المطار خلفه بضجيجه وازدحامه والطائرات التي لا عمل لها سوى الهبوط والإقلاع، وتنطلق السيارة عبر طريق (فان ويك السريع) متجهة شمالًا، وتبدأ معالم المدينة بالمباني المتلاصقة والجسور والإعلانات الضوئية والإلكترونية العملاقة، وتعبر أحياء مدينة (نيويورك) مثل (كوينز) و(برونكس)، واستمتع (محمود) بمشاهدة ناطحات السحاب العملاقة مثل (إمباير ستيت) و(ميدتاون مانهاتن) من بعيد أثناء مرور السيارة فوق جسر (جورج واشنطن)، وكل هذا يشاهده ونُتَف الثلج تتساقط من السماء وتصبغ الأسطح باللون الأبيض في مشهد رائع ومذهل لا يُمحى من الذاكرة بسهولة، ثم خرجوا إلى الطريق السريع، الذي لا ترى على جانبيه سوى الظلام الذي تعجز أضواء الطريق عن إزالته، ورغم ذلك استطاع (محمود) تمييز جبال وتلال وغابات على الطريق، وأثار إعجابه العناية الكبيرة بإظهار معالم الطريق لسالكيها، قبل أن تنحرف السيَّارة إلى طرق مظلمة قليلة الأضواء شُقت في الغابات الكثيفة، ولم يجد (محمود) غضاضةً في سؤال السائق عن كل ما يثير فضوله واهتمامه، والسائق يجيب بصبر وتأنٍ وتعمّد إخراج الكلمات واضحة مفهومة ليصل الجواب كاملًا، وبعد ساعتين وصل (محمود) إلى منزل مُضيفه، والمشهور بـ (قصر فاندربيلت).

وعلى باب القصر وجد (محمود) مُضيفه السَيِّد (هاجارد) رجلًا أمريكيًا بعمر يناهز الخمسين عامًا، بشعر مصفف بعناية وشارب ولحية قصيرة وخلت

جميعًا من أي شعرة بيضاء، ويرتدي حلة سوداء كاملة أسفلها قميص أبيض وربطة عنق زرقاء ذات زخرفة راقية، ويضع نظارة طبية وساعة يد ذهبية، باختصار كان الرجل أنيقًا ويبدو كأنه خرج من صفحة تاريخ حين كان الرجال رجالًا.. وسادة.

بترحاب كبير صافح (محمود) كأنَّه يعرفه منذ زمن بعيد، وقد غاب عنه أمدًا طويلًا، واصطحبه إلى حجرة المكتب الصغيرة في الجزء الخلفي من الطابق الأوَّل، بجدرانها المكسوة بالخشب والموقد الذي تضطرم فيه النيران وتعلوه مجموعة من المسدسات التي تعود للقرن التاسع عشر أو بدايات العشرين ويتوسطها شعار ما، وأمامه مقعدان مِن ورائهما مكتب صغير، وتغطى جدار كامل بأرفف من الكتب، وثلاثة أبواب بخلاف الباب الذي دخلا منه، والحقيقة أنَّ كل شيء في القصر يشي بالثراء الفاحش والرفاهية المُفرطة، وأخذ عن (محمود) معطفه ووضعه على مشجب هناك، قبل أن يدعوه للجلوس على أحد المقعدين أمام المكتب ويجلس هو على الآخر، واستمتع (محمود) بكل ما يراه ويسمعه ويلمسه أيّ استمتاع، بالثراء.. بالرفاهية.. بالدفء القادم من موقد النار.. بمُضيفه المهذب الأنيق.. الذي تحدث قليلًا عن رحلة (محمود) إلى هنا، قبل أن يصطحب الأخير إلى حجرة الطعام، ولن أدخل في التفاصيل الكثيرة التي يحبها (محمود) في وصف تلك الحجرة، فهي تنضح كسواها بالثراء الفاحش، ومن بين مائدتين، الأولى طويلة وعلى جانبيها اصطفت المقاعد بالإضافة لمقعد فخم مميز عند رأسها وآخر لا يميزه شيء عند الطرف المقابل، والأخرى دائرية محاطة بأربعة

مقاعد، وعليها أطباق الطعام ووقف عندها خادمان، دعاه مُضيفه للأخيرة لتناول طعام عشاء متأخر بعد هذه الرحلة الشَّاقة، ويعتذر عن بساطة العشاء المكوّن من حساء اليقطين والدجاج المشوي والبطاطس، وقام الخادمان بخدمتهما على الوجه الأمثل، ولن نتحدث هنا عن معاناة (محمود) في إمساك السكين باليمين والشوكة باليسار لتناول لحم الدجاج المشوي، ولكن السَيِّد (هاجارد) كان فطنًا ولبقًا وماهرًا ودعاه لأن يتبع "الأسلوب العصرى" بتناول اللحم باليد إلى الفي، لنجد هنا (محمود) يحمل فخذ الدجاج المشوي كأنَّه يحمل فأسًا ويفترسه بنهم، وهو يسأل نفسه:

- إذا كان هذا الطعام بسيطًا، فما هو الطعام الصعب المُعقَّد؟

يبرر (محمود) سلوكه بقوله: كلّا، لم يكن الأمر جوعًا أو عوزًا، فظروفي المالية ممتازة للغاية، ولكنه اختلاف في نمط الحياة.

بعد هذا العشاء المتأخر، اعتذر السَيِّد (هاجارد) عن سلوكه الخالي من الذوق بإبقاء ضيفه ساهرًا، واصطحبه إلى الطابق الثاني إلى الحجرة الزرقاء في القصر حيث لكل حجرة اسم يعكس زخرفتها الجميلة النفيسة، ووجد حقيبته فيها، وقال السَيِّد (هاجارد):

- في العادة نتناول طعام الإفطار عند الساعة السابعة، ولكن بعد رحلتك الشَّاقة، سنؤخره إلى الساعة التاسعة، حتَّى تنعم بالنوم الكافي.

الرجل جعل (محمود) يظنُّ بأنَّه جاء من بلده إلى هنا حبوًا على الأقدام، والمهالك تتربص به على جانبي الطريق وليس في درجة رجال الأعمال في أفضل طائرات الرُّكاب التي تملكها أكبر شركات الطيران!

انصرف الرجل بعد أن تمنى لـ(محمود) ليلة هادئة ونومًا هنيئًا، ولم ينم (محمود)، وهو ينظر إلى السرير الضخم بأغطيته الزرقاء والذي يسعه هو وجميع دارسي الفيزياء في جامعته ~ أظنّه يبالغ هنا ~ والمقاعد عند أقدام السرير والتي تقابل موقد النار الذي تشتعل فيه النيران، يبدو أنَّ السَيِّد (هاجارد) لم يسمع بمكيّف الهواء أو التدفئة المركزية، أو أنَّه يحب نمط التدفئة القديم، اقترب من النافذة وأزاح الستارة الزرقاء، لينظر إلى خارج القصر، كانت أضواء القصر تُضيء ما أمامه وبضعة أشجار من الغابات التي تمتد أمامه وقد تساقطت أوراقها، كان الثلج قد توقف وقد كسى كل شيء باللون الأبيض، استمتع بما يراه قبل أن يعود يطوف ببصره في أرجاء الحجرة الدافئة، ثمّ أخرج منامته من حقيبته واستبدل ثيابه واندس تحت الغطاء الوثير، والمقارنة بين الصقيع في الخارج والدفء في الداخل تثير القشعريرة في بدنه...

***

7

حديث يسرق الوقت

"انطلق الهتاف قويًّا من (محمود) وهو يدير رأسه إلى صندوق الساعة الأنيق القائم بذاته بجوار النافذة أشبه بصوان، ليجدها تشير إلى الواحدة والنصف، وعلت ضحكة وقورة من السَيِّد (هاجارد) وهو يقول:
- لقد سرقنا الحديث الشَيِّق، فلم نشعر بمرور الوقت"

استيقظ (محمود) الساعة الثامنة بعد ليلة من النوم الهانئ العميق، ووقف من النافذة يشاهد المشهد الساحر أمامه، الأرض المكسوة بالثلج وأشجار الزان مع أشجار البلوط الأبيض وأشجار الجوز الأسود تساقطت أوراقها وبدت فروعها الممتدة كفارس خسر معركته أمام جحافل الشتاء ولم يعد يهتم بشيء فوقف شامخًا مادًا ذراعيه ويهتف:"لن أركع، اجلبوا كُلّ ما عندكم"، وأشجار الرز الأحمر وقفت منتصبة لم تخسر أوراقها ولكن بدون شموخ وكبرياء الأولى، ونهر هدسون بلونه الرمادي وهو يجري وسطها يريد أنْ يعانق الأفق، ومن خلف الجميع جبال كاتسكيل بلون أزرق خفيف، والشمس تتوارى خلف سحب رمادية كثيفة.

مكث في موضعه يتمنى لو يبقى للأبد، لولا موعده مع السَيِّد (هاجارد)، أسرع إلى الحمام والاغتسال ووجد نفسه يقف في البهو الواسع الذي يتصل بحجرة نومه، ولا يعلم أين يذهب؟

أخرجه من حيرته قدوم خادم يطلب منه مرافقته للقاء السَيِّد (هاجارد) في حجرة المعيشة في الطابق الأوَّل.

هنا أتوقف عن عن نقل ما يقوله (محمود)، لإيضاح بعض الأمور الغائبة عنه، هذه الأمور التي علمتها أثناء بحثي - فيما بعد - عن القصر الذي يتحدث عنه، وما وجدته أنَّ قصر (فاندربيلت) مملوك لـ (إدارة المتنزهات الوطنية) وهو ملكية عامة وليس ملكًا لشخص ما، ويتم تنظيم جولات سياحية للقصر، فهل يتحدث (محمود) عن هذا القصر أم قصر آخر؟! لعل

الأمور اختلطت عليه، وتوهم الأمر، ولكن وفقًا لوصفه الدقيق فإنَّ ما قاله ينطبق على هذا القصر!

وفي حجرة المعيشة وجد (محمود) السَيِّد (هاجارد) ينتظره، ووقف للترحيب به، ودعاه للجلوس، وأخذ السَيِّد (هاجارد) ناصية الحديث وأخبره عن القصر وتاريخه والقصص الطريفة التي تدور حوله، وكما أسلفنا كان السَيِّد (هاجارد) حذقًا لبقًا في حديثه، واستطاع أن يعرف الكثير عن (محمود)، وقد سُرَّ سرورًا عظيمًا باهتمام (محمود) بالعالم القديم وأساليبه، قبل أن يتوجها لحجرة الطعام، ويتكرر ما حدث بالأمس إلَّا أنَّ طعام الإفطار يتكون من الخبز والبيض وقطع اللحم الصغيرة، وقد أُعدت بطريقة ماهرة، وقد حرص السَيِّد (هاجارد) على إخبار (محمود) أنَّ الخبز والبيض من أفضل مزارع (هايد بارك)، واللحم هو لحم خراف وليس لحم خنزير تقديرًا منه لدين ومعتقدات (محمود)، (محمود) الذي لم يأت على ذكر الصلاة طوال حديثه عن رحلته!

فرغا من طعام الإفطار وأمام نافذة تطل على نهر هدسون جلسا يحتسيان القهوة العربية الفاخرة، وهما ينظران إلى وادي هدسون بنهره والجبال من ورائه ونُتف الثلج تتساقط من جديد، وبمهارة دفع السَيِّد (هاجارد) الحديث إلى حيث يريد، قال السَيِّد (هاجارد):

- لا أحد يعلم كيف اختفى العالم القديم، هل انتهى بتكنولوجيا أزالته من الوجود؟ هل بوباء أم سقوط نيزك؟ أيا كان السبب، لقد خسرنا الكثير، الكثير جدًّا.

محمود وهو يأخذ رشفة من فنجانه:

- لا تزال بقاياه شاهدة على عظمته، وتخبر عن أمجاده، ليتنا نعلم كيف نكشف أسرارها؟

السَيِّد (هاجارد):

- ما هو سبب اهتمامك بالعالم القديم؟

أجابه (محمود)، وببرائة أخبره عن كل شيء، بإعجابه بآثار العالم القديم وعن رغبته في كشف أسرار أساليبه وصُنْع أمجاده الخاصة، إلى بحثه عن سحرة الاستعراض وصولًا للسَيِّد (هاجارد).

أصغى السَيِّد (هاجارد) إلى (محمود) بآذان صاغية واهتمام شديد، وهو يهز رأسه بين بين الحين والآخر باستغراب تارة وإعجاب تارة أخرى، ومن المنضدة الصغيرة بينه وبين (محمود) تناول صندوقًا صغيرًا من الأبنوس الأسود ومُزيَّن بزخرفة ذهبية، وأخرج غليونًا صنعته ذات اليد التي صنعت الصندوق، ودون أن يقاطع (محمود) أشار إليه كأنَّه يستأذنه، وبكرم حاتمي هزّ الأخير له رأسه بالموافقة، ليشرع في حشو غليونه بتبغ من صندوق أصغر في الصندوق الصغير، الذي تناول منه ولّاعة، ولّاعة أبت أنْ تختلف عمّا سواها، وأخذ أنفاسًا متعاقبة ليمتلئ المكان برائحة عطرية جميلة كأنها تتغلغل في الصدر وثنايا المخ، وجعلت (محمود) يقطع حديثه وينظر إلى طرف الغليون الذي يتصاعد منه الدخان، ويسأل في دهشة:

- ما هذه الرائحة الرائعة؟

ابتسم السَيِّد (هاجارد) وقد سرَّه إعجاب (محمود)، أجابه:

- هذه رائحة اِحتراق التبغ.

لم يرفع (محمود) نظره عن الغليون وهو يقول في دهشة:

- حقًا! لم اشتم من قبل تبْغًا له مثل هذه الرائحة الطيبة!

أخرج السَيِّد (هاجارد) الغليون من فمه، وهو يضحك بوقار، قال:

- إنَّه تبغ خاص، يُصنع بأساليب قديمة لفئة خاصة.

كان صوته مع كلامه يحمل مغزًا أدركه (محمود)، ومد الأول يده بالغليون إلى الأخير وهو يقول:

- أترغب في تجربته؟

لم يكن (محمود) مدخنًا من باب منطق الأذكياء فقط -والذي يخونه كثيرًا- الحقيقة أنَّ الذكاء العلمي أو الأكاديمي يختلف عن ذكاء معاشرة البشر وأن تقاطعا أحيانًا، ولكن (محمود) لا يتأفف من صحبة المُدخنين، ورفع يده معتذرًا وشاكرًا، ليُكمل السَيِّد (هاجارد) مبتسمًا:

- لا تقلق، سأحضر لك غليونًا آخرًا جديدًا.

ابتسم (محمود)، قال:

- أنا أرفض التدخين عمومًا، ولا أرى فيه ما يراه المدخنون.

وافقه السَيِّد (هاجارد) بإيماءة خفيفه، قال:

- الحقيقة أنَّك ذكي يا سَيِّد (محمود)، كل ما أخبرتني به يقول أنني لم أخطئ في اختياري ودعوتي لك بالقدوم إلى هنا.

سُرَّ (محمود) بهذا الثناء، وتابع السَيِّد (هاجارد):

- لم تخبرني بعد، ما أكثر شيء ترغب فيه وتبحث عنه في العالم القديم؟

أجابه (محمود):

- كل أساليب العالم القديم، تهمني معرفة أسرارها وخاصة النور.

كان السَيِّد (هاجارد) يدخن غليونه وينظر بعيدًا من النافذة، ولكن كلمة ضيفه الأخيرة، جعلته ينتزع الغليون من فمه وينظر إلى جليسه مكررًا الكلمة الأخيرة بهتاف دهشة:

- النور!

لم يتوقف (محمود) عند دهشة مُضيفه، بل تابع في حماس:

- نعم، النور، علماء الأثار يعتقدون أنَّ المسلات نحتها ملوك الفراعنة والأقدمون لتُكتب عليها أسماؤهم، ولكنني أعتقد أنَّ المسلات تعود للعالم القديم، وأنَّها كانت تستخدم كأعمدة إنارة.

كانت الصدمة ظاهرة على السَيِّد (هاجارد) وهو ينظر إلى (محمود) ولا يحرك ساكنًا، شيئًا فشيئًا بدأ الأخير يدرك ما اعترى مُضيفه، في حذر وقلق:

- السَيِّد (هاجارد)، هل أخطأت في شيء ما؟

لم يجبه السَيِّد (هاجارد) على الفور، بعد لحظات نفض رأسه وعاد ينظر من النافذة، أجاب:

- كلَّا، لم تُخطئ في شيء يا سَيِّد (محمود)، ولكن أدهشني حديثك عن النور والمسلَّات، عادة يكون اهتمام الكثيرين عن الأهرامات وكيفية نقل الأحجار الضخمة لبنائها.

محمود:

- أملك فكرة عن هذا الأمر.

بدا السَيِّد (هاجارد) شارد الذهن وهو يسأل:

- حقًا! ما هي؟

قال (محمود) بحماس.. بثقة:

- لقد استخدموا مُضادات الجاذبية لفصل العلاقة بين الوزن والجاذبية، أو إنقاص الكتلة لنفس الغرض.

هزَّ السَيِّد (هاجارد) بحركات بطيئة، وهو لا يترك الشرود والنظر إلى البعيد، قال:

- لقد اقتربت، لقد استخدموا الاهتزاز.

حان دور (محمود) لتحط الدهشة على وجهه، ويهتف:

- الاهتزاز!

لم يتغير شيئ في هيئة السَيِّد (هاجارد) وهو يتابع الحديث بطريقة العالم بالأمر:

- نعم، الاهتزاز، كان يتم وضع الصخور بعد قصَّها بين قطبي مجال مغناطيسي متناوب القطبية، ويؤدي لعمل اهتزاز شديد تكون نتيجته ذهاب الوزن حتَّى أنَّك تستطيع رفع صخرة تزن عشرة أطنان بسبابتك.

في دهشة عارمة، علَّق (محمود) هاتفًا:

- إلى هذا الحد؟! كيف لم يؤد هذا لتفتيت الصخرة؟

السَيِّد (هاجارد):

- الاهتزاز يكون محصورًا في الفراغ الجزيئي بين الجزيئات ولا يتعدى ذلك، لذلك لا تلحظه العين ولا تشعر به الملامسة.

لم يخف (محمود) عجبه وهو يقذف بسؤاله:

- كيف علمت بهذا؟

أدار السَيِّد (هاجارد) رأسه إلى (محمود) ونظر إليه بعيون كفيفة:

- علمت بماذا؟

وخرج من شروده وأفتعل ضحكة عالية وهو يجيب:

- أنا أهتم بالعالم القديم أيضًا، ولي قراءات ومصادر.

لم يخف (محمود) لهفته، هتف:

- حقًا! هل لي أن أطلب منك السماح لي بالإطلاع عليها؟

بابتسامة، باعتذار، أجابه:

- لنؤجل هذا الأمر إلى وقت آخر، وأخبرني عن اهتمامك بالنور والمِسلَّات، كيف تكون المِسلَّات أعمدة إنارة؟ ألا ترى أنَّ هذا الأمر غريب ولا يتناسب مع طبيعة المِسلَّات الضخمة الثقيلة؟

بهذه الأسئلة استطاع استبدال الاِهتمام والحماس بالخيبة من على وجه (محمود)، الذي انطلق يتحدث:

- بل يتناسب تمامًا، لأنَّ طبيعة الضوء تحتاج هذه الضخامة.

باهتمام، نظر إليه السَيِّد (هاجارد) يسأله:

- كيف هذا؟

شبك (محمود) الجواب بسؤاله:

- لأنَّ المِسلَّة الواحدة تضييء المدينة كاملة، كانت في الليل بديلًا لشمس النـهار.

قاطعه السَيِّد (هاجارد) وقد قطب جبينه، والتفكير العميق في ملامحه:

- بديلًا لشمس النـهار! كيف هذا؟

محمود:

- بسبب طبيعة الضوء المُستخدم، أو لنستخدم اللفظ الصحيح وهو النور، الضوء يعني طاقة كبيرة وحرارة عالية ويجعل الحياة مستحيلة أو على الأقل صعبة في المكان القريب من المِسلَّة، لقد تم صُنع هذه المِسلَّات لتشع نورًا، نور خاص يضيء الطرقات كما يضيء دواخل المنـازل والبيوت اعتمادًا على طبيعته وليس قوته أو شدته، نور يتميز بخواص انعكاس وانكسار تسمح له بالتغلغل في ثنايا المحيط ويزيل عنها الظلام، فتبدو كأنَّها في ضوء النـهار ولكن بدون وهجه وحرقته، بل سَكِينة كنور قمر عند تمامه في ليلة هادئة.

وضع السَيِّد (هاجارد) مرفقه على ذراع مقعده، واتكأ بصدغه على السبابة والوسطى، وبدا كأنَّه يفكر عميقًا.. بعيدًا.. قال بتأنٍ:

- هل تعلم؟ لم يصل أحد إلى ما وصلت إليه، كلام غريب وعجيب، ولكنه منطقي ويفسر كل شيء.

محمود:

- يفسر كل شيء! مثـ...

قاطعه دخول الخادم ووقوفه بالقرب منـهما قائلًا:

- ليسمح لي السَيِّد (هاجارد) وضيفه المحترم بإبلاغهم بحلول موعد طعام الغداء.

-ماذا؟

انطلق الهتاف قويًّا من (محمود) وهو يدير رأسه إلى صندوق الساعة الأنيق القائم بذاته بجوار النافذة أشبه بصوان، ليجدها تشير إلى الواحدة والنصف، وعلت ضحكة وقورة من السَيِّد (هاجارد) وهو يقول:

- لقد سرقنا الحديث الشَيِّق، فلم نشعر بمرور الوقت.

ونهض يدعو (محمود) لمرافقته إلى حجرة الطعام..

* * *

8

النور والظلام

"فكان الضياء يأخذ من الظلام المحاسن ويضع فيه مساوءه، فسرق النهار من الليل قطعة من الهدوء والسكينة أو ما نسميه بالقيلولة، ولم يكتف بهذا، بل جعل في الظلام مقابلها من شروره أو ما نعرفه نحن بالسهر، ثم سرق الأمان وجعل مكانه الخوف"

يبدو أنَّ السَيِّد (هاجارد) تجري في عروقه بعض الدماء العربية، فالكرم الذي يلاقيه السَيِّد (محمود) مبالغ فيه، كرم مصحوب باعتذار عن هزالة الغداء الذي بدأ بالمقبلات من سلطة جبن الماعز والبنجر المحمص والخضروات الطازجة مع شوربة كريمة القرع بالزنجبيل والكركم تلاها الطبق الرئيسي من لحم الضأن تم طهيه مع الأعشاب ثم غمسة في صلصة خاصة ثم شَيَّه على نار هادئة ~ يُسرف كثيرًا في وصف الطعام، حتَّى أنَّ لعابي يسيل، وكيف علم أنَّه تمَّ شَيَّه على نار هادئة؟! ~ مع أطباق جانبية من الكُسكس بالمرق والجزر والبازلاء مع الفاصولياء الخضراء، مع طبق الهليون المشوي الممزوج بزيت الزيتون والملح والفلفل، والخادمان إلى يمين خلف الأثنين، يحرصان على امتلاء الأطباق، وتقطيع اللحم وإعادة ملئ الكؤوس وجعل تجربة الغداء رفاهية لم يعهدها (محمود)، كانا يجلسان إلى المنضدة الطويلة، حيث شغل السَيِّد (هاجارد) الكرسي المُزخرف عند رأسها، وإلى يمينه ضيفه.

قال السَيِّد (هاجارد) وهو يقطع بسكينة فدرة لحم، كأنَّه يكمل حديثًا سابقًا:

- هل كنت تظن أنني استخدم شيئًا من أساليب العالم القديم في عروضي السحرية؟

أجابه (محمود) وهو يأخذ ملعقة من حساء الخروف اللذيذ:

- السريَّة والغموض اللذان تحيط بهما عروضك السحرية، جعلني أمام اِفتراضين، الأوَّل أنَّك حقًا تمتلك ما تنفرد به ويجعل الناس تسعى لمشاهدة عروضك السحرية رغم أسعارها الباهظة وشروطك الصارمة، وهذا يعني

أنَّك ساحر مميز أو تمتلك ما يميزك، والثاني أنَّك محتال حذر جدًّا، ولكن الشواهد جميعها تشير للاِفتراض الأوّل.

ورفع رأسه إلى مُضيفه، وبفضول سأل:

- ما هي العروض السحرية التي تقدمها؟

لم يجبه مُضيفه على الفور بل واصل تناول طعامه، وبتأنٍ رفع رأسه ونظر إليه، أجاب:

- ما يطلبه الحضور.

كان (محمود) في هذه اللحظة ينظر بحسرة إلى قطعة اللحم المشويَّة المختلطة بعظم، ويسأل نفسه عن الطريق المُثلى لتناولها، أيمد يده وينهشها؟ أم ماذا؟ لكن الخادم أراحه بإخراج قطعة اللحم ووضعها في الطبق، وباِحترافية وسرعة أزال اللحم تمامًا عن العظم ليصبح جاهزًا للسَيِّد (محمود)، ووضع العظام في إناء آخر، يا للحسرة، لن يستطيع مصّ النُخاع، ومع جملة السَيِّد (هاجارد) الأخيرة نظر إلى مُضيفه بدهشة وكرر:

- ما يطلبه الحضور! كيف؟

عاد السَيِّد (هاجارد) إلى التركيز على طعامه، وأجاب السؤال بسؤال:

- ماذا تريد أنت؟

ردد (محمود) السؤال بحيرة:

- ماذا أريد أنا؟

كأنَّها لعبة، كرر السَيِّد (هاجارد) سؤال:

- ماذا تريد أنت؟ أي عرض سحري ترغب في مشاهدته حتَّى أقوم بإعداده لك.

من الحيرة إلى الدهشة، قال (محمود):

- تعده لي؟ وهل تعد لكل شخص من جمهورك عرضه الخاص؟

وهو يبتسم، أجابه السَيِّد (هاجارد):

- هذا ما يحدث، والآن.. ما الذي ترغب فيه؟ كلما كان مستحيلًا كان الأفضل، طبعًا نحن لا نتحدث عن عروض استعراضية مثل ابتلاع النار وقص الأجساد وغير ذلك من الهُراء، نحن نتحدث عن عرض حقيقي، عرض سحري.

فكر (محمود) مليًّا في عرض صعب أو مستحيل، ثم جاءته خاطرة، قال:

- أرغب في أن تخبرني ماذا يحدث في شقتي الآن؟

بهدوء قال السَيِّد (هاجارد):

- الجواب المنطقي هو "لا شيء"، لقد أغلقت شُقَّتك عند رحيلك وهي خالية من البشر تمامًا.

ونظر إلى (محمود) في عينيه، تابع:

- لنجعل الأمر أكثر مشقَّة وإمتاعًا، أنا أدعو نفسي إلى تناول طعام العشاء معك في شُقَّتك، ولا بأس بتقديمي للأهل والأصدقاء والجيران.

نظر إليه (محمود) مدهوشًا، قال:

- العشاء في شقتي!

هزَّ السَيِّد (هاجارد) رأسه إيجابًا، قال:

- أنا مَن يذهب بنا إلى هناك، وأنت من يعد لنا الطعام هناك، لن أرهقك بوجبة ضخمة، شطائر الجُبْن أو المُربَّى تكفي، أعلم أنَّك تحتفظ في ثلاجتك ببعض الخبز والجبن والمُربَّى.

لم تترك الدهشة (محمود) وهو يقول:

- كـ.. كيف؟ حقًا؟ هل ستفعلها حقًا؟

أكَّد السَيِّد (هاجارد) بهزِّ رأسه، قال:

- الساعة الثامنة مساءً سنكون في شُقَّتك في بلدك، ولك الحرية في تقديمي للجيران والأصدقاء، وستستغرق رحلتنا من هنا إلى هناك ثانية أو أقل، والآن دعني أسألك سؤالًا هل تفضل النور أم الظلام؟

فوجئ (محمود) بهذا الاِنحراف في الحديث وهو الذي لم يترك الدهشة بعد، ووجد نفسه يهتف:

- ماذا؟

كرر السَيِّد (هاجارد) سؤاله، وهنا يقول (محمود) أنَّ حديثهما أصبح لائقًا باثنين من المجاذيب في أكبر مستشفى للمجاذيب أكثر منه بسيدين مهذبين يتحدثان بهدوء في قصر فخم راق حول مائدة طعام فاخر.

أجاب (محمود):

- بالتأكيد أفضِّل النور.

كان جوابه صاعقة أصابت مُضيفه الذي نظر له مذهولًا وهو يقول:

- تُفضِّل النور!

حتمًا لم يكن اِنفعال السَيِّد (هاجارد) يناسب جواب (محمود)، الذي أدهشه اِنفعال مُضيفه وظنَّ إنه ارتكب إثمًا ما، تمالك الأوَّل نفسه وانشغل بتناول طعامه حتَّى طرح السؤال التالي:

- لماذا؟

جاء هذا السؤال وسط اِنشغال (محمود) بفهم ما حدث، وجاء رد (محمود):

- ماذا؟

السَيِّد (هاجارد):

- لماذا تُفضل النور على الظلام؟

مدهوشًا نظر إليه (محمود)، أجاب:

- أليس هذا أمرًا بديهيًا، النور يعني الوضوح والطمأنينة ومعرفة طبيعة ما حولك بما يسمح بتحديد السلوك المناسب للتعامل معه، والظلام يعني الخوف والجهل بما يحيط بك وعدم معرفة الطريقة الملائمة للتعامل معه.

بدهشة كرر السَيِّد (هاجارد):

- الظلام خوف وجهل! من أين جئت بهذا الهُراء؟

وتمالك نفسه، فتابع بسرعة معتذرًا:

- أعذرني، ما كان لي قول ذلك، ولكن حديثك أدهشني خاصة وأنت مُعجب ومهتم بالعالم القديم، الظلام هدوء وسكينة وإدراك يسمو به العقل.

لوهلة لم يعلم (محمود) ماذا يقول؟ ووجد نفسه يقول مرتبكًا:

- ما العلاقة بين إعجابي بالعالم القديم والظلام؟

في تعجب، أجابه السَيِّد (هاجارد):

- ألا تعلم أنَّ العالم القديم كان ظلامًا دامسًا؟

دُهش (محمود) وعقَّب:

- كان ظلامًا دامسًا؟ وكيف كانت الحياة فيه؟ كيف يرى الناس أشياءهم؟ كيف يدركون ما حولهم؟ كيف يمارسون حياتهم؟

بثقة، بيقين، أجابه السَيِّد (هاجارد):

- بالإدراك.

لم يجد (محمود) سوى تكرار الكلمة بغباء:

- الإدراك!

تابع مُضيفه الحديث:

- نعم، الإدراك، إذا قلت لك أن تغمض عينيك وتتخيَّل هذه القاعة التي نجلس فيها، حتمًا ستتخيلها كما هي بتفاصيلها وألوانها، وهذا هو الإدراك، كانت الناس تعيش حياتها في نعيم ورغد، في هدوء وسكينة، قبل أن يأتي النور ويقوم بخديعته ويذهب بالظلام المقدس.

في بلاهة، عقَّب (محمود):

- النور خدع الظلام!

أكمل السَيِّد (هاجارد) حديثه العجيب:

- محمود، أنت مسلم وتعلم أنَّ الرَّب خلق الظلام أولًا، ثم خلق الضياء، ولم تكن هناك حاجة للخلق بالضياء، الضياء إزعاج وإرهاق، هنا مكر النهار فسأل الرَّب أنْ يكون الأمر بينه وبين الظلام، من ينتصر وتكون فيه الفائدة للخلق، يبقى ويسود، وقَبِل الرَّب ذلك، فكان الضياء يأخذ من الظلام

المحاسن ويضع فيه مساوءه، فسرق النهار من الليل قطعة من الهدوء والسكينة أو ما نسميه بالقيلولة، ولم يكتف بهذا، بل جعل في الظلام مقابلها من شروره أو ما نعرفه نحن بالسهر، ثم سرق الأمان وجعل مكانه الخوف، ثم ارتكب النور خديعته الكبرى حين عبث بالقوانين، السكين لا تجرح في الظلام، كي تجرح يجب أن يكون هناك نور، السقوط في الهاوية في الظلام لا يقتل ولا يكسر ولكنه في النور يفعل، هنا تباهى النور بأنَّ الظِلال هم عبيد من الظلام أتخذهم ليستعبدهم، كانت الخليقة بِكرًا، والمكر والخداع لا يألفه الظلام، ووقع الظلام في الفخ، وقرر أن يتخذ أسرى من النور ليحرر بهم الظِلال، وأخذ الظلام قطعة من النور وأدخلها في جوفه، وهنا اكتشف الظلام الخديعة، قطعة النور أزالت الظلام من الوجود أربعين عامًا، ولم يبق شيء إلّا وأصابه النور، ومع النور تبدلت القواعد والقوانين التي تحكم الخلق إلى هذا اليوم، الأخطار التي كُتب عليها الأمان في الظلام، صارت أخطارًا في النور والظلام، بل صارت في الظلام أشد إرهابًا وإفزاعًا، يكفي أن تعلم أنَّ المكان الذي تكون فيه في الظلام يحتوي شيئًا ما يؤذي، فينتابك الخوف والفزع، رغم أنَّه لم يؤذك بعد، لقد انتصر النور على الظلام إلى هذا اليوم، ومنذ ذلك الحين لا يأمن الظلام النور، ولا يأخذ منه شيئًا، والصراع محتدم منذ ذلك الحين، تراه في حركة الليل والنهار عبر الفصول، ولا يزال الظلام يرغب في استعادة ما خسره ويحاول بلا كلل، ونحن هنا في مهمة عظيمة، نساعده ونسانده، هذه هي الحقيقة يا سَيِّد (محمود)، عالمنا الحقيقي هو الظلام الدامس.

هنا أتوقف عن نقل حديث (محمود) لتوضيح الكثير مما قاله السَيِّد (هاجارد)، السَيِّد (هاجارد) يستغل جهل (محمود) بدينه ويغرس فيه خُزَعْبلاته وما يوافق أهواءه، فالنور كان قبل الظلام، أما خلق الليل فقد سبق خلق النهار، والليل يقابله النهار وليس النور، فالنور والنهار لهما دلالتان مختلفتان، أنَّ داء العصر ظاهر في حديث السَيِّد (هاجارد) وهو التدليس وخلط المعاني والمصطلحات والدلالات، فالنور والضوء والنهار ثلاثة أشياء مختلفة ويستخدمها للدلالة على ذات الشيء، وكذلك الظلام والعتمة والليل، وبخصوص صراع النور والظلام، فلم أجد له أثرًا في علوم الأديان السماوية، ولا في عالم الأساطير والخُرافات، أقرب ما يكون لما يقوله السَيِّد (هاجارد) هو أسطورة الإله (رع) في الأساطير الفرعونية، وتقول الأسطورة أنَّ الإله (رع) يُبحر في مركب في السماء لينشر النور والضياء في النهار، وفي الليل يُبحر بمركبه في العالم السفلي، وفي العالم السفلي تقوم الأفعى (أبوفيس) - وهي إله الظلام والفوضى- بمهاجمة مركب الإله (رع) بالعواصف والظلام محاولة إغراقه ومنعه من بدء نهار جديد، ولكن الإله (رع) يجد له أعوانًا كالإله (ست) - إله الشر - الذي يقف معه بالإضافة لألهة أخرى، ويستطيعون معًا هزيمة (أبوفيس)، ويعبر مركب الإله (رع) العالم السفلي ليبدأ نهار جديد، هذه هي أقرب الأساطير لما يحكيه السَيِّد (هاجارد)، وهذا يعني أنَّ السَيِّد (هاجارد) يكذب، أو أنَّ له مصادره الخاصة التي يأتي منها بهذا الهُراء.

نعود إلى (محمود) الذي كان في حالة من البلاهة لا يُحسد عليها، ولم يجد ما يُعقِّب به على كلام مُضيفه، سوى أن يقول:

- حقًا!

أومأ السَيِّد (هاجارد) برأسه وأكَّد بقوله:

- حقًا، حقًا يا سَيِّد (محمود)، إذا رغبنا في سبر أغوار العالم القديم وكشف أسراره، فيجب علينا أن نُعيد الظلام ليعود سَيِّدًا من جديد، أنت ترغب في معرفة سر النور والكهرباء في العالم القديم، لا نستطيع ذلك لأنَّ العالم القديم اختفى وذهبت معه كل علومه وأسراره، وكي تعود تلك العلوم وتُكشف هذه الأسرار يجب أن يعود العالم القديم، ولن يعود العالم القديم حتَّى يعود الظلام، فهل أنت مستعد يا سَيِّد (محمود) للمساهمة في هذا المجد، كي تصنع مجدك الخاص؟

وكان ما فتح الله به على (محمود) أن قال:

- ولكن.. ولكن كيف سنرى في الظلام؟ كيف سنحيا في عالم بلا نور؟

السَيِّد (هاجارد):

- الليلة سترى تجربة فريدة لم ترها من قبل.

لا تجرؤ على اِتهام السَيِّد (هاجارد) بالجنون والخَبال، أن من يعيش حاضرنا ويرى ما فيه من مصائب وتُرهات، رُبَّما يجد ما يقوله السَيِّد (هاجارد) هو أهون الشرور والتفاهات، هناك مَن يعبد (إبليس) ويعمل ليلًا نهارًا كي يسود بظلمه وفساده الأرض، ولا يردعه عن ذلك أن يعلم أنَّ (إبليس) يبغضه كما يبغض (آدم) ونسله، وهناك مَن يدعو البشر للعيش

كالدواب مُتخلين عن كل ما يربطهم بإنسانيتهم، والأمثلة كثيرة، تُعد ولا تُحصى.

فرغا من تناول طعام الغداء، ورفع الخدم الأطباق بسرعة لتأتي التحلية المكونة من فطيرة الجُبن بنكهة شراب القيقب ومُغطاة بالجوز المحمص.

أتمّا التحلية ليعودا إلى حجرة المعيشة إلى مجلسهما السابق، وبدلًا من القهوة قُدِّم لهما عصير التفاح، وأخذا يرتشفانه في صمت وهما يستمعان إلى حسيس النار في الموقد، ويشاهدان الطبيعة أمام القصر في هذا اليوم الشديد البرودة، ولأوَّل مرَّة يرى (محمود) عدة قوارب تمخَر النهر، وهو يفكر عميقًا في ما سمعه من السَيِّد (هاجارد)، ولا يدري أهو مزحة أم دعوة إلى شيء ما؟ شيء لا يدري كنهه.

كأنَّ السَيِّد (هاجارد) يستمع إلى أفكاره، قال:

- دع القرار إلى الغد، بعد أن ترى الدليل والبُرهان.

لم يُعقِّب (محمود) بكلمة، وأردف مُضيفه:

- انظر، لقد بزغت الشمس، ما رأيك في جولة سياحية إلى نهر هدسون؟

قَبِل (محمود) الاِقتراح بحماس شديد، يعكس رغبة في رؤية محيط القصر، واستأذن مُضيفه في إحضار مِعْطفه، ولكنَّ السَيِّد (هاجارد) أصرَّ عليه أن يقوم الخادم بذلك وأن يكتفي بإيضاح كيفية العثور عليه للخادم.

* * *

9

في دُنيا (محمود)

"أنَّه يعرف كل ركن فيه، كل قطعة أثاث.. الأرائك.. المقعد الوحيد.. المنضدة الصغيرة بالشرخ في الزجاج الذي يغطي سطحها.. كتاب "فيزياء الضوء عبر العصور" عليها مع جهاز التحكم عن بعد الخاص بالشاشة وأطباق الزجاج والخزف الصغيرة.. الشاشة المعلقة على الحائط.. أصِيص نبات الظل في الركن.. الستائر التي تغطي النافذة، كما تركها في صباح الأمس قبل أن يغادرها إلى المطار"

لا يستطيع (محمود) أن يصف المشهد بكلمات، مزيج من الزمان والمكان، أمام القصر حدائق لها تصميم إيطالي مقسمة إلى مستويات تنخفض شيئًا فشيئًا في اتجاه النهر، وتكثر فيها النوافير وتربطها سلالم بيضاء رخامية، وممرات مرصوفة على جانبيها سياجات من خشب البَقْس، كانا يسيران متجهين غربًا إلى ضِفاف نهر هدسون يتبعهما خادم وشمس الأصيل تشرق بين السحب الرمادية، وتُلقي الدفء على الوجود، وتصنع للأشجار التي تساقطت أوراقها ظِلالًا تمتد للشرق فوق الثلوج البيضاء، التي جعلها انعكاس ضوء الشمس عليها أشبه بقطع ماس تتناثر على الأرض وفروع الأشجار، وجبال كاتسكيل بزرقتها التي تخالط الأخضر وتعانق السماء ترسم خلفية ساحرة، ونسيم خفيف بارد يضرب الوجنات يثير البرد والانتعاش في مزيج رائع، وصوت طيور كأنها تغرد ابتهاجًا بالطبيعة الجميلة.

ويتحدث (محمود) عن تجربة غريبة في الذهاب عبر هذه الحدائق، يوجد بعض العمال يعملون في الحدائق، وهذا أمر لم يلحظه من قبل أثناء النظر من نوافذ القصر، أنَّ العمال لا يرون (محمود) ومُضيفه، لا يلتفتون إليهما ولا يشعرون بهما، أحد العمال جاء يدفع عربة صغيرة في الممر الذي يسيران فيه، قام السَيِّد (هاجارد) بجذب (محمود) من ذراعه إلى زاوية وهو يتظاهر بأنَّه يرغب في أن يريه نوع من الزهور، حتَّى عبر العامل دون أن تبدو منه إشارة أنَّه يراهما أو يشعر بهما، بل أنَّ العامل بصق في اتجاههِما دون أي اعتبار لهما.

وفي طريق الإياب تكرر الأمر، وهذه المرَّة رجل يبدو كمرشد سياحي يقود مجموعة من الأشخاص عبر الحدائق ويشير ويشرح لهم ما حولهم، مرّوا بهما دون أن يبدو عليهم أنَّهم رأوا السَيِّد (هاجارد) وضيفه أو شعروا بهما، حتَّى النظرات كأنها تنفذ منهما إلى ما ورائهما ولا تستقر عليهما، أوعز (محمود) ما يراه إلى التوهم والخيال، واستمتع بهذه الجولة الرائعة إلى ضفاف النهر رغم قِصرها لزوال نهار الشتاء القصير، وكَفَته ليزول ما اجتاحه من اِنفعالات من الحديث السابق مع السَيِّد (هاجارد).

***

- أمستعد أنت؟

ألقى السَيِّد (هاجارد) هذا السر على (محمود) وهما وقوف في حجرة المعيشة أمام موقد النار بعد غروب الشمس، وقد ارتدى كل منهما مِعطفًا ثقيلًا، وأجاب (محمود):

- مُستعد.

قال السَيِّد (هاجارد) والاعتذار في صوته:

- مع الأسف لن تكون زيارتنا لشَقَّتك طويلة، ولكن سأعطيك الفرصة لتتأكد أنَّه لا خداع هناك، يجب أن أعود سريعًا لقد استجدت أمور تستوجب عودتي.

بتفهّم هزَّ (محمود) رأسه، قال:

- لا بأس بذلك، يكفيني أن أعلم أنَّك قادر على ذلك.

السَيِّد (هاجارد):

- الساعة الآن هي السابعة والنصف مساءً، أظنّ أنَّ الوقت في بلدك هو السابعة والنصف صباحًا، أليس كذلك؟

محمود:

- تقريبًا.

ظلام.. ثم وجد نفسه مع السَيِّد (هاجارد) يقفان في بهو شَقَّته، هذا كل ما يستطيع (محمود) قوله عن تجربة انتقاله من القصر في (نيويورك) إلى شَقَّته، نظر إلى ما حوله مذهولًا، يقلِّب نظره في الأثاث والأركان، كان بهو شَقَّته لا مجال للشك في ذلك، أنَّه يعرف كل ركن فيه، كل قطعة أثاث.. الأرائك.. المقعد الوحيد.. المنضدة الصغيرة بالشرخ في الزجاج الذي يغطي سطحها.. كتاب "فيزياء الضوء عبر العصور" عليها مع جهاز التحكم عن بعد الخاص بالشاشة وأطباق الزجاج والخزف الصغيرة.. الشاشة المعلقة على الحائط.. أصِيص نبات الظل في الركن.. الستائر التي تغطي النافذة، كما تركها في صباح الأمس قبل أن يغادرها إلى المطار..

لم يكن ما يقوله (محمود) غريبًا عنّي، لقد رأيت شيئًا مشابهًا بأم عيني مع (سعيد) و(عبد الكريم) وإن لم أخض التجربة بنفسي.

نظر السَيِّد (هاجارد) إلى ساعة يده، ورفع رأسه إلى (محمود) قائلًا:

- هل يكفيك نصف ساعة لتتأكد أن لا خدعة هناك؟

أسرع (محمود) إلى حجرة نومه وهو يقول:

- إنَّـها تكفي.

فتح الباب وألقى عليها نظرة متأنية، كانت كما تركها، وأسرع إلى خزانة الثياب وفتح بابها، ونظر إلى موضع فيه لا يراه إلَّا مَن يعرفه، ووجد العلامة التي يبحث عنها، خرج من حجرة النوم متجهًا إلى باب الشَقَّة، وقال للسَيِّد (هاجارد) الواقف يتأمَّل ما حوله:

- بضع دقائق وأعود.

وفتح باب الشَقَّة ونَزل مهرولًا يقفز درجات السُلَّم قفزًا ليصل غايته، ووجدها أمام البناية جالسة متدثرة بمِعْطف أسود ثقيل وعِمة كبيرة، وتدخن سيجارًا وترتشف الشاي، رآه البواب (عوض) وهبَّ واقفًا يقول في دهشة:

- الأستاذ (محمود)! ألم تسافر بعد؟

أجابه (محمود) بسرعة:

- لقد عدت لأخذ بعض الأشياء، هل الهاتف الذي أهديتك أيَّاه قبل بضعة شهور معك؟

في تردد وضع يده في جيب جلابيته واخرجها في تردد ممسكة بالهاتف، لا شك أنَّه يظنّه تراجع عن هديته، أخذ الهاتف منه متلهفًا وأداره في يديه، نعم.. هذا هو هاتفه القديم قبل أن يستبدله بآخر.. أعاد الهاتف وهو يعي نظرات البواب المتسائلة، سأل:

- ما هو تاريخ اليوم؟

جواب سؤاله في هاتفه المحمول ولم يكن في حاجة لسؤال أحد ولكن فعلها لغرض في نفسه، وأجابه البواب والدهشة لا تتركه، وأتبع الجواب بسؤال:

- ومتى عدت يا سَيِّد (محمود)؟

قال (محمود) وهو يسرع السيْر إلى نهاية الشارع:

- فيما بعد يا عم (عوض)، فيما بعد..

لم يكن لدي (محمود) شكّ في السَيِّد (هاجارد)، لا توجد خدعة هناك، ولكنه يفعل ما يفعله من باب "كي يطمئن قلبي"، بلغ المتجر الكبير في نهاية الشارع، المتجر الذي يقوم بشراء حوائجه منه، ودفع الباب الزجاجي الكبير، وخلفه وجد البائعة (سناء) وهي تقوم بخدمة أحد المُشْترين، لم ينتظر وتقدم منها، ونظرت له قبل أن تبدو عليها الدهشة وتهتف:

- محمود! ألم تسافر بعد؟

أجابها وهو يلحظ تأفف المشتري من هذه المقاطعة:

- نعم، لم أسافر بعد، (سناء) هل تذكرين القرش العتيق الذي أعطيتك إياه قبل عام تقريبًا.

نظرت إليه في دهشة شاركها فيها المشتري، قالت:

- نعم، أذكره.

بلهفة.. بأمل.. سألها:

- هل هو معك؟ هل أستطيع أن أراه؟

لم تجبه بكلمات، بل رفعت يدها لتُبدي رسغها وقد أحاط به سوار تدلى منه القرش العتيق، لقد ثقبته وأضافته للسوار.

يبدو أنَّ (محمود) لم ينتبه لمغزى فعل الفتاة، أو أنَّه تجاهله، أو أنني أتوهم شيئًا ليس حقيقيًا، كما قلت الذكاء العلمي والأكاديمي لا يعني ذكاء ممارسة الحياة.

رفع رأسه إليها، قال:

- سؤال أخير، ما تاريخ اليوم؟

أجابته والانفعالات تتكاثر وتتزاحم على وجهها، والمُشْتري ينظر إلى (محمود) متشككًا في أحواله العقلية والنفسية.

أخذ (محمود) الجواب وعاد به مسرعًا، ومرَّ بالبواب الذي هبَّ واقفًا، وأخرج (محمود) من جيبه ورقة من فئة العشرة دولارات، وأعطاها للبواب الذي أخذها مدهوشًا.

دخل شَقَّته ولم يجد السَيِّد (هاجارد) في البهو، أين ذهب؟ وجده في حجرة المكتب واقفًا أمام أرفف الكتب وهو يمسك بكتاب ما يتصفحه، نظر إلى (محمود)، قال:

- كتاب رائع، الكثير من التخمينات وبعضها قريب من الحقيقة.

أعاد الكتاب إلى موضعه في الرف، وعلم (محمود) ما يتحدث السَيِّد (هاجارد) عنه، الكتاب باللغة الإنجليزية وعلى غلافه بخط أنيق عريض "بداية الخلق في الأديان والمعتقدات والأساطير".

نظر إلى (محمود).. باستفهام، سأل:

- هل تحققت من الأمر؟

هزَّ (محمود) رأسه إجابًا، وألقى السَيِّد (هاجارد) بآخر:

- هل نعود؟

رفع (محمود) سبابته في إشارة استئذان وتمهل، وأسرع إلى حجرة نومه، واختطف من على الصوان الصغير بجوار السرير كتابًا واخذ يخط فيه بضع كلمات، ثم إلى خزانة الثياب، حيث انتزع زر أحد القمصان ووضعه في جيبه.

كما قلت، (محمود) يعلم أنَّه لا توجد خدعة هنا، ولكن في حالة وجودها فسيكشفها، هناك سحر يُسَمى "سحر التوهم" أو "سحر الوهم"، فإذا هذا هو الحال هنا فسيكتشفه قريبًا.

عاد إلى السَيِّد (هاجارد)، قال:

- جاهز للعودة.

ظلام.. ليجد نفسه مع السَيِّد (هاجارد) مرَّة أخرى في حجرة المعيشة في القصر، مبتسمًا قال السَيِّد (هاجارد):

- رحلة قصيرة، هل استمتعت بها؟

محمود:

- لا استطيع وصف ما أشعر به، تبدو كحلم أو كطيف من الخيال.

أومأ السَيِّد (هاجارد) برأسه وهو ينظر إلى ساعة يده، قال:

- أعذرني يا سَيِّد (محمود)، يجب أن أغادر الآن، ستتناول طعام العشاء وحيدًا، وسأحرص على توفر جميع سُبُل الراحة لديك.

محمود:

- شكرًا لكرمك سَيِّد (هاجارد)، هل ستتغيب كثيرًا.

السَيِّد (هاجارد):

- بضع ساعات فقط، هل تحتاج شيئًا ما قبل ذهابي؟

ابتسم (محمود):

- أن تعود سريعًا.

ابتسم السَيِّد (هاجارد) وهزَّ رأسه و.. اختفى..

تناول (محمود) وجبة العشاء وحيدًا في حجرة الطعام، ويقول عن هذا الأمر:

- كان وجود السَيِّد (هاجارد) يجعل من تناول الطعام مذاقًا خاصًا رغم الإحراج الذي ينتابه في بعض الأحيان.

لذلك أسرع في تناول الطعام ليعود إلى حجرة المعيشة ويقضي فيها ساعتين ينظر من النافذة إلى حدائق القصر المُظلمة، ويفكر في ما حدث، ويستمع إلى معمعة النار، ويرتشف الشاي، والخادم عنده برَنَّة الجرس، شعر بعدها بالنعاس، وغادر إلي حجرته..

*** * ***

طرقات مهذبة متعاقبة أيقظت (محمود) من نومه، لوهلة لم يدر أين هو؟ تدارك نفسه ووضع عنه الغطاء الناعم الدافئ، ونهض ليفتح باب حجرته، ليجد خادم السَيِّد (هاجارد) يقول:

- سَيِّد (محمود)، السَيِّد (هاجارد) يعتذر عن إيقاظك، ويطلب منك موافاته في حجرة المعيشة.

نظر له (محمود) هُنيهة، قال:

- أبلغ السَيِّد (هاجارد) أنني سأرتدي ملابسي وأوافيه هناك.

خفض الخادم رأسه، قال:

- السَيِّد (هاجارد) يقول "لا حاجة لتغيير الملابس، يكفي ارتداء المِعْطف".

استدار محمود ليتناول مِعْطفه من على المشجب ويرتديه فوق منامته، وألقى نظرة خاطفة على الساعة الكبيرة فوق الموقد ليجدها تُشير إلى الثانية والنصف صباحًا، وخرج ليسير في صحبة الخادم إلى غرفة المعيشة.

وهناك وجد السَيِّد (هاجارد) واقفًا أمام موقد النار الخامدة وهو يمسك كأسًا يرتشف ما فيه، التفت إلى ضيفه مبتسمًا، قال:

- أرجو أن تعذرني يا سَيِّد (محمود) على إيقاظك في هذه الساعة.

أجابه (محمود) وهو يقف بجواره عند الموقد:

- لا حاجة للاعتذار، أرجو أن لا يكون هناك فاجعة ما دفعتك لإيقاظي.

ضحك السَيِّد (هاجارد)، قال:

- فاجعة؟ لا، لكن أوّلًا هل ترغب في تناول شراب ما؟

نظر (محمود) حوله ثم إلى الساعة بجوار النافذة المُسدلة الستائر، أجاب:

- شراب؟ في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة! ولم لا، لا بأس باللبن.

ضحك السَيِّد (هاجارد) مُدركًا مغزى كلام ضيفه، وأشار للخادم بيده وهو يقول:

- كن على يقين يا سَيِّد (محمود)، ما كنت اجرؤ على إيقاظ ضيفي لولا أمر بالغ الأهمية.

محمود وقد أذهبت غشاوة النعاس ببعض دماثته:

- كنهاية العالم مثلًا.

* * *

10

جنود الـ...

"- لنفعل كل ما يلزم لنصرة الظلام، لنصير جنودًا له كي نقهر النور، كيف السبيل إلى ذلك؟ كيف السبيل إلى ذلك يا سَيِّد (هاجارد)؟
كما يحدث في الأفلام، امتدت كف السَيِّد (هاجارد) اليُمنى لتُوضع على كف (محمود) الأيسر ويقول بأمل.. بانفعال:
- الليلة.. الليلة يا (محمود) نصير جنودًا للظلام، الليلة نصنع فصلًا جديدًا في صراع النور والظلام، الليلة تكون البداية لعودة الظلام وزوال النور"

عاد السَيِّد (هاجارد) يضحك من جديد، قال:

- نهاية العالم! حتمًا لن أوقظك كي ترى النهاية المخيفة للعالم.

وأردف وهو يضع الجدية على وجهه:

- سَيِّد (محمود)، منذ استيقاظك من النوم إلى قدومك هنا وحديثك معي، هل لاحظت شيئًا ما؟

نظر (محمود) حوله وهو يبذل جهده لإزالة بقايا النوم عن عقله، وحاول أن يفطن لما يقصده مُضيفه، فلم يفلح، ورد السؤال بنظيره:

- لا، ما هو؟

نظر إليه السَيِّد (هاجارد) في عينيه، وبصوت قوي عميق، قال:

- سَيِّد (محمود)، لقد جئت من حجرتك إلى هنا، في الساعة الثانية والنصف صباحًا وأنت ترى كل ما حولك، ومُدركًا لحقيقته رغم..

وتوقف هُنيهة ليُعطي حديثه زخمًا وتأثيرًا، أردف:

- رغم الظلام الدامس، وعدم وجود مصدر للضوء، أي مصدر كان.

مع نهاية حديثه انتبه (محمود) إلى المصابيح المطفأة، والنار الخامدة، وجد نفسه يهتف:

- ماذا؟

مع نهاية هتافه وجد الظلام يغمر كل شيء، حتَّى لم يعد يرى شيئًا، تابع هتافه:

- ماذا حدث؟ لم أعد أرى شيئًا!

جاءه صوت السَيِّد (هاجارد) قادمًا من الظلام المُدْلَهِم:

- لأنَّك سعيت إلى النور فأخفى الظلام حقيقته.

سمع (محمود) صوت حركة بقربه ومفاتيح تُضغط وعادت المصابيح تسطع بالضياء، ومُضيفه واقفًا بالقرب من الباب، لم يرفع يده عن مفاتيح الإنارة بعد.

السَيِّد (هاجارد):

- ما قولك في هذه التجربة يا سَيِّد (محمود)؟ هل تظن أنَّك لا زلت في حاجة إلى النور؟

لم يُجبه (محمود)، صمت برهة طويلة، رُبَّما لو أدرك الأمر من بدايته لاستطاع الإجابة أو الإدلاء برأي ما، ولكنه فطن له في النهاية، وحين فطن ذهب ذلك الأمر فلا يستطيع القطع بحقيقته أو زيفه.

كأنَّما أدرك السَيِّد (هاجارد) ما يدور بخَلَده، فقال:

- ليس هناك خدعة يا سَيِّد (محمود)، ما رأيته هو حقيقة الظلام، الظلام إدراك وهدوء وسكَينة وليس جهل وفزع وخوف.

وأشار إلى المقعد القريب من طرف الموقد في دعوة إلى (محمود) بالجلوس، وسار هو ليجلس على المقعد الآخر عند الطرف المقابل من الموقد، وضغط مفتاحًا بجوار الموقد لتهبّ النار فيه.

كانت القاعة دافئة، ولكن مشهد النار بثت في جسد (محمود) قشعريرة، وبلا وعي منه أدنى كفيه من النار وعاد يفركهما ببعضهما بقوة.

وجاءه سؤال السَيِّد (هاجارد):

- سَيِّد (محمود)، هل لا زلت تعتقد أنَّه لا يمكن العيش في الظلام؟

صمت (محمود) برهة، فكر عميقًا، وخرجت كلماته بطيئة كسيحة:

- سَيِّد (هاجارد)، لقد رأيت ما حدث قبل قليل، واستطيع القول أنَّه إذا لا توجد خدعة في الأمر، فإنَّ العيش في الظلام ممكن ويمكن الاستغناء عن للنور.

السَيِّد (هاجارد):

- لا توجد خدعة في الأمر، ما شهدته بنفسك هو عودة الظلام بطبيعته الحقيقية، الطبيعة التي لم يلوثها النور بأساليبه الخبيثة.

لم يعقَّب (محمود)، وأُستغرق في صمت طويل وتفكير عميق، يقلّب الأمر على جميع الوجوه، يحاول فهم الأمر على حقيقته، أن يرى ما وراء الأكمة، ذهب النور وجاء الظلام، ما الذي سيتغير؟ وماذا سيستفيده هو من ذلك؟ ماذا ستستفيد البشريَّة؟ ما الغاية من هذا كُلّه؟

ولم يقاطع السَيِّد (هاجارد) شيئًا منهما، وبعد حين، قال (محمود):

- وماذا بعد؟

نظر له السَيِّد (هاجارد)، كرر:

- ماذا بعد؟!

محمود:

- نعم، ماذا بعد؟ ما الذي سيعود علينا بعودة الظلام؟ ما الذي سيتغير؟ ما نفعله في النور، سنفعله في الظلام، فقط استبدلنا مُسمى بآخر، لماذا تسعى في هذا الأمر؟

أطلق السَيِّد (هاجارد) تنهيدة طويلة، ووضع مرفقيه على ذراعي مقعده، وأنامل يمناه على يسراه أمام وجهه، قال:

- نحن لا نستبدل مُسمى بآخر، نحن نعيد الكون إلى فطرته الطبيعية، الأشياء يجب أن تقوم بما تعنيه مُسمياتها حين نرغب في ذلك فقط، لا أن تكون تلك طبيعتها طوال الوقت، السكين يقطع حين نرغب أن نقطع شيئًا ما، لا أن يقطع حين تضع يده عليك سهوًا، الشتاء لتساقط الأمطار و...

يقول (محمود) أنَّه لم ينهض من مجلسه مع السَيِّد (هاجارد) حتَّى صار مقتنعًا تمامًا بأهمية الظلام ووجوب عودته، وقد تحدَّث السَيِّد (هاجارد) كثيرًا، فوائد الظلام وفضله على الأشياء، وأذى النور وبخله على ما سواه، ولم يقاطعه سوى دخول الخادم حاملًا كأس الحليب الذي طلبه (محمود)، وعند باب حجرة المعيشة سمع (محمود) السَيِّد (هاجارد) يناديه، التفت إليه، ليجد الأخير قادمًا إليه يحمل صندوقًا ناصع البياض، ويقول:

- لقد جلبت لك هذه الهدية الثمينة.

تناول (محمود) الصندوق منه، ونظر إلى زخرفته قبل أن يرفع نظره إلى السَيِّد (هاجارد) متسائلًا، فأجابه:

- أنت مهتم بعلوم العالم القديم، وهنا ستجد بعضها.

وبأسف تابع:

- ولكنها علوم لا يُستفاد منها دون عالمها الحقيقي..

هُنيهة وأكمل:

- الظلام.

نظر له (محمود) لحظة خاطفة تبعها بهزَّة رأس متفهمة، وكأنَّه تذكر شيئًا، قال:

- سَيِّد (هاجارد)، أنت لم تخبرني بعد، كيف سنُعيد العالم إلى طبيعته، إلى الظلام؟

نظر إليه السَيِّد (هاجارد) متأنيًا، وببطء أجاب:

- لقد أخبرتك من قبل، لن يستطيع العودة حتَّى يجد له جنودًا، جنودًا يقاتلون من أجله.

محمود:

- وكيف هذا؟ كيف تصير جنديًا من جنود الظلام؟

الآن يدرك (محمود) كم كان أحمقًا في ذلك الحين..

بدا السرور في عيني السَيِّد (هاجارد)، أجاب:

- سَيِّد (محمود)، إذا رغبت أن تكون جنديًا من جنود الظلام، فسأحرص على ذلك، وليكن هذا حديثنا على مائدة الإفطار.

هزَّ (محمود) رأسه موافقةً، قال:

- حسنًا، تصبح على خير.

سار إلى حجرته وأغلق الباب بعد أن أضاء المصابيح، وهو جالس على طرف السرير، حاول أن يفتح الصندوق ليعرف كنه الهدية، حاول عدة مرات حتَّى أهتدى إلى مفتاح صغير، ضغطه ليسمع صوتًا خافتًا، وفتح الصندوق.. وأصابت (محمود) الدهشة مرتين، الأولى حين انحاز الضوء

إلى الصندوق في ظاهرة عجيبة لم يرها من قبل، والثانية هي الفراغ الأسود في الصندوق الذي بدا داخله كنافذة تطل على عالم أسود مظلم، بعد لحظات من الحيرة والدهشة، بحذر مد يده إلى داخل الصندوق، وبعد قليل من وضع يده هنا وهناك، أدرك أن الصندوق ليس فارغًا، بل يحتوي شيئًا ما، شيء أشبه.. بكتاب.

أخرج القطعة المُظلِمة كأنه يحمل قطعة من الظلام الدامس لا أبعاد لها، ورأى كيف ينقل الضوء انحيازه إلى حيث ما يمسك به، حقًا أنَّه كتاب، وقلَّب أوراقه.. لم يستطع تمييز شيء، حتَّى وهو يمسك الكتاب بيديه، يبدو الكتاب كشيء أسود ثنائي الأبعاد، أو فجوة تطل على عالم أسود بلا ملامح، ما هذا؟..

* * *

- إنَّه النور يا سَيِّد (محمود)، حين يرى شيئًا من الظلام حتَّى يندفع إليه، لا يستطيع أن يرى الظلام أو يشعر به حتَّى يُسرع إليه، يريد أن يزيله من الوجود، ألا ترى ما يفعله ضوء المصابيح في الظلام؟ ما يفعله ضوء الشمس في الليل؟ لماذا هذا الحقد؟ لماذا هذه الكراهية؟ لأنَّ الظلام أفضل! هذه هي مشيئة الرَّب يا سَيِّد (محمود)، هو مَن اختار أن يكون الفضل للظلام.

تكلم السَيِّد (هاجارد) بحديثه وهو يغرس شوكته بقوّةٍ وغضب في قطعة نقانق مطهوة مع البيض وهو يجلس مع (محمود) إلى مائدة الإفطار في حجرة الطعام عند الساعة السابعة والنصف صباحًا.

الانفعال واضح في حركات وسكنات السَيِّد (هاجارد) وهو يتناول إفطاره، ولم يعلِّق (محمود) بشيء، وانتظر حتَّى هدأ السَيِّد (هاجارد) وتمالك نفسه.

ولا ينكر (محمود) أن زيارته التي لم تكمل ثمان وأربعين ساعة قد غيّرت الكثير من أفكاره، وبدأ يجنح نحو الظلام وكراهية النور، وشعر بالاستياء من النور الذي يُصرّ على محاربة الظلام وإزالته ~ لنحتفظ بعقولنا حتَّى تتضح لنا الصورة من وسط هذا الهُراء ~ ووجد نفسه يهتف:

- يجب أن يكون هناك مَن يقف في وجه النور، يجب أن نتصدى له، يجب أن نمنعه من إفساد عالمنا، يجب، يجب، يجب.

التفت إليه السَيِّد (هاجارد) بقوة.. بأمل ينضح من عينيه.. هتف:

- بالتأكيد يا (محمود)، بالتأكيد، اغفر لي مناداتك بدون لقب "سَيِّد"، أشعر الآن أكثر من أيّ وقت مضى أننا صرنا أصدقاء.

بانفعال.. بقوة.. قال (محمود):

- بل أكثر من ذلك يا سَيِّد (هاجارد)، لقد صرنا حلفاء وشركاء في الهدف والمصير.

هل الشراكة والتحالف أشد من الصداقة؟! المهم، لنعد إلى (محمود) الذي فقد عقله..

محمود:

- لنفعل كل ما يلزم لنصرة الظلام، لنصير جنودًا له كي نقهر النور، كيف السبيل إلى ذلك؟ كيف السبيل إلى ذلك يا سَيِّد (هاجارد)؟

كما يحدث في الأفلام، امتدت كف السَيِّد (هاجارد) اليُمنى لتُوضع على كف (محمود) الأيسر ويقول بأمل.. بانفعال:

- الليلة.. الليلة يا (محمود) نصير جنودًا للظلام، الليلة نصنع فصلًا جديدًا في صراع النور والظلام، الليلة تكون البداية لعودة الظلام وزوال النور، والليلة ستصير قادرًا على رؤية كلمات الكتاب وقرائتها.

كعاشقين، قبض (محمود) على يد السَيِّد (هاجارد).. أكَّد:

- الليلة! نعم، الليلة، سنجعلها ليلة فاصلة في تاريخ الصراع بين النور والظلام يا سَيِّد (هاجارد)..

لا تعليق..

*** * ***

مشى (محمود) بجوار السَيِّد (هاجارد) في النفق الطويل، لم يتكلم أحدهما منذ أن ولجا لهذا النفق من المدخل السرّي في حجرة التنظيف في طابق الخدمات أسفل القصر، وبحث (محمود) عن شيء يقطع به الصمت، فكان:

- ما هذا المكان؟

حثَّ السَيِّد (هاجارد) الخطى وهو يقول:

- نفق سرّي بناه صاحب القصر (فريدريك فاندربيلت) يؤدي إلى نهر هدسون.

محمود:

- نفق سرِّي! ولم؟

السَيِّد (هاجارد):

- لا أحد يعلم، البعض يقول إنَّه يستخدم لنقل البضائع بطريقة سرِّية بعيدًا عن أعين الناس والمنافسين، ولكن الأقرب للحقيقة هو نفق للطوارئ لأجل الفرار.

قبل أن يفتح (محمود) بسؤاله عن الفرار مماذا؟ تابع السَيِّد (هاجارد) حديثه:

- لقد وصلنا.

لا يعلم (محمود) إلى أين وصلا، فالممر لا يزال ممتدًا للأمام حتَّى يتلاشى في الظلام، وهما يقفان في بقعة من النفق لا يميزها شيء.

وقف السَيِّد (هاجارد) مواجهًا جدار النفق الأيمن، ولم ير منه (محمود) فعلًا ملحوظًا، ولكن جزءًا من الجدار انزاح، ليظهر ما أذهله..

رأى عالمًا مختلفًا، جبل وحيد ضخم جوانبه قوائم، ويشغل كل قمته قصر ضخم هائل بلون بنفسجي، يحيط به وادٍ عميق من كل جانب، وادٍ يتصاعد منه ضباب بنفسجي اللون يصير أحمر داكنًا عند مستوى القصر قبل أن يتلاشى في سماء سوداء بلا نجوم.. بلا شيء يُفسد تجانسها الأسود، وفي

الخلفية جبال يحجبها الجزء الأحمر من الضباب فلا يبدو منها سوى ملامحها العامة بلا تفاصيل، وهنا تواردت الأسئلة إلى ذهن (محمود)، من أين جاء هذا المكان؟ لقد رأى قصر السَيِّد (هاجارد) وكل ما حوله، ولا وجود لمكان كهذا أو شبيه له قريبًا منه، لقد ولج النفق مع السَيِّد (هاجارد) عند الساعة الحادية عشرة ليلًا وهذا المكان يبدو في وقت الغروب، والسؤال الأهم هو كيف سيذهبان إلى هناك؟ إلى القصر! أنهما يقفان على حافة جُرْف يفصله عن القصر الوادي العميق!

قاطع ذهوله وأفكاره قول السَيِّد (هاجارد):

- هيا بنا.

واندفع يسير نحو القصر، والأكثر إثارة للدهشة أنَّه لم يسقط في الوادي، بل بدا كأنَّه يسير على أرض صلبة سويَّة.

في تردد.. في رهبة.. في حذر.. مدَّ (محمود) قدمه أمامه.. و.. وهوى..

***

11

ظلام

"حين فعلت ذلك، أدركت أنني لم أشهد ظلامًا في حياتي قط، الظلام عرفته وأدركته حين وقفت أمام هذا النُصب، ظلام لم أعرفه من قبل، ظلام يكتم الأنفاس، كأنَّك تغرق في بحر، ماؤه من الظلام، ظلام لا يعرفه بشر من قبل"

هنا قاطعته هاتفًا:

- هويت! هل تعني أنَّك سقطت في الوادي؟

محمود:

- نعم، هذا ما حدث، لقد سقطت فيه كمن يسقط من الطابق العشرين.

لماذا الطابق العشرين؟..

في دهشة.. في حيرة.. سألته:

- و.. وكيف نجوت؟

محمود:

- السَيِّد (هاجارد) هو مَن أنقذني.

- كيف وقد سبقك في المسير؟

- لقد التفت في اللحظة المناسبة ليحثني على الإسراع، ورآني أسقط.

-ولكن كيف أدركك؟ هل أمسك بشيء منك قبل أن تُكمل سقوطك في الوادي؟

- لا.

- إذًا كيف انقذك؟

- دعني أُكمل وستعرف، الغريب إنَّك لم تسألني عن السَيِّد (هاجارد)، كيف استطاع السير؟

تأملت في سؤاله الأخير، لقد كان محقًا فيه، وبتمهل قلت:

- رُبَّما لأنَّ شيئًا كهذا متوقع منه، شخص.. غامض.. ساحر.. لن يكون غريبًا أن يكون قادرًا على هذا..

- منطق معقول.

- لنعد إلى حكايتك.

- لنعد إلى حكايتي.

* * *

دب خوف ورعب هائل في (محمود) وهو يسقط بسرعة مخيفة في الوادي، رُعْب ظهر في ملامحه وخرج في هيئة صرخة هادرة تُخبر عن خوفه وفزعه، صرخة تكررت وهو يعبر طبقات الضباب البنفسجي الذي يتحول تدريجيًّا إلى الأسود كلما ازداد غوصًا في الوادي.

أدرك (محمود) أنَّه هالك لا محالة.. ولكن قبضة قوية أمسكت كاحله، وصوت السَيِّد (هاجارد) يصرخ:

- (محمود).. دع النور يا (محمود).. لا تفكر فيه.. أنت في أرض الظلام.. السقوط لا يؤذي.. أنت في أمان.. أخرج من سيطرة النور.. النور لا وجود له هنا.. لا سيطرة له في عالم الظلام.. لا تدعه يقتلك..

لم يجد نفعًا ما يقوله السَيِّد (هاجارد)، وواصل (محمود) سقوطه، وتسلّق الأوَّل الأخير حتَّى أمسك بتلابيبه، وهوى بصفعة على خَده وهو يصرخ:

- محمود، استمع لي قبل أن تقتل نفسك، أنفض عنك ألاعيب النور، أنت لا تسقط، أنت تستطيع السير على الضباب، الهُوَة لا تقتل، السقوط لا يقتل..

وهوت صفعة أخرى جعلت عقل (محمود) يعود إليه شيئًا فشيئًا، وأنَّه يواصل السقوط في ضباب يزداد سوادًا، والسَيِّد (هاجارد) يمسك بتلابيبه ويسقط معه، وأدرك الأخير أنَّ رفيقه يسمع ويعي، قال وهو يلملم الهدوء في صوته:

- محمود، هيا، دع عنك أوهام النور، السقوط لا يقتل، الهُوة لا تعني السقوط، اطرد الخوف الذي جاء به النور، سيُهلكك، هيا، نحن لا نسقط، هيا يا (محمود)، ثق بي، ثق في الظلام، الهُوَة لا تعني السقوط، السقوط في الهُوَة لا يعني الموت، هيا، هذه هي الحقيقة يا (محمود).

رحلة السقوط الطويلة مع كلمات السَيِّد (هاجارد)، جعلتا (محمود) يفكر في ما حوله.. يفكر ويقتنع.. ومع كل تغير في فكره تقل سرعة سقوطه حتَّى توقف تمامًا.

السَيِّد (هاجارد):

- رائع، رائع يا (محمود)، لقد هزمت النور، تخلصت من ألاعيبه، هيا نصعد إلى حيث كُنا.

كان جسد السَيِّد (هاجارد) يطفو رويدًا رويدًا، وهو التعبير الأفضل بدلًا من يصعد، ويجذب (محمود) معه بمشقة في البداية، ثم بسهولة إلى أن بلغا موضعهما قبل السقوط، وكمن يشجع طفلًا، قال السَيِّد (هاجارد):

- هيا، هيا يا (محمود)، لنواصل طريقنا إلى قصر السادة، سادة الظلام.

و ببطء سار (محمود) كأنَّه يغوص في أرض طينية، بخلاف رفيقه الذي يسير بهدوء وثقة وسلاسة، ويقول:

- لا بأس يا (محمود)، لا بأس، لقد تخلصت من النور ولكن بقايا منه لا تزال عالقة في ذهنك، لذلك تجد صعوبة في السَيْر.

اقتربا من القصر وشعر (محمود) بأن سيره صار أفضل وأسرع، بلغا القصر ووقفا ببابه الأسود الضخم الطويل المليء بزخرفة بنفسجية اللون تؤدي إليه عدة درجات، وتوقع أن يُفتح الباب أو يدفعه السَيِّد (هاجارد) بيده، ولكنَّه وجد الأخير يجثو على ركبتيه، ويحني رأسه، ويطلب من (محمود) أن يفعل مثله.

السَيِّد (هاجارد):

- سَيِّدي، ملك الظلام، لقد حضر خادمك (هاجارد)، وبرفقته فارس جديد، يرغب أن ترضى عنه، وتقبل به جنديًّا في جيشك، وخادمًا مُطيعًا لحضرتكم.

لم يكن (محمود) يرغب في الأمر بالطريقة التي قدمها به السَيِّد (هاجارد)، ولكن لا بأس بهذا الآن، لنصحح الأمور فيما بعد.

من لا مكان هدر صوت كأنَّه يأتي من مكبرات ضخمة، صوت غاضب:

- ولكنه مُلوَّث، النور في كل شيء فيه.

بخضوع.. بسرعة.. قال السَيِّد (هاجارد):

- سننقيه يا مولاي، لن نجعل للنور مكانًا فيه، جئت به لأنال قبولك ورضاك، مولاي.. أترضى بالسَيِّد (محمود) فارسًا في جندكم وخادمًا لحضرتكم؟

لم يأته رد، وبعد برهة فُتح الباب الضخم على مصراعيه، ليبدو من ورائه ممر طويل فُرشت أرضه ببساط زخرفته كزخرفة الباب، وينتهي بنُصب

أشبه بحرف الواي الكبير في اللغة الإنجليزية (Y) في وسط دائرة ترتفع عن الأرض بمقدار شبر، وعلى جانبيه اصطفت أجساد ترتدي ثيابًا كثياب الرهبان بلون بنفسجي داكن للأسود أقرب، أما الأمر المخيف هوأنَّـهم جميعًا بلا وجوه، فقط فجوة سوداء.

نهض السَيِّد (هاجارد) من مكانه، وهو يقول:

- هيا، سرْ خلفي، انظر للأرض، لا تلتفت مهما حدث، وافعل كما أفعل تمامًا.

انتظر (محمود) حتَّى تقدَّم السَيِّد (هاجارد) وتبعه وهو ينظر للأرض، صعدا الدرجات القليلة حتَّى عبرا عتبة الباب، يسيران والرهبان أو الأشباح - أيهما أقرب لخيالك- يضعون أكُفّهم على كتفي (محمود) من الجانبين كُلَّما مر بهم، وبلغ السَيِّد (هاجارد) النُصب وجثا على ركبتيه ووضع كفيه على على فخذيه وأحنى رأسه وهو يقول:

- عبيدك جاءوا يسألوك الرضا يا مولاي.

فعل (محمود) كما فعل صاحبه، وانتظر ردًا طال انتظار ولم يأته، وجاء صوت من أحد الشخوص من على الجانب:

- ليتقدم العبد المُلوَّث إلى صولجان الظلام.

لم يفهم (محمود) شيئًا مما قيل، ولكن الأمر اقتحم عقله بعد هُنيهة على هيئة صورة، أدرك منها أنَّ هذا ما يجب عليه القيام به، نهض ودار حول السَيِّد (هاجارد) الذي لم يغيّر حاله، وصعد الدائرة، وتقدَّم إلى النُصب وضم ساقيه معًا وفرد ذراعيه على ذراعي النُصب.

يقول (محمود):

- حين فعلت ذلك، أدركت أنني لم أشهد ظلامًا في حياتي قط، الظلام عرفته وأدركته حين وقفت أمام هذا النُصب، ظلام لم أعرفه من قبل، ظلام يكتم الأنفاس، كأنَّك تغرق في بحر، ماؤه من الظلام، ظلام لا يعرفه بشر من قبل. بقي (محمود) في موضعه حتَّى أوشك أن تُزهق روحه، وحاول أن يتراجع وقاوم ولكنه أشبه بمن يسبح في لُجة كثيفة ثقيلة من الظلام، أشبه بكابوس حين تشعر بشيء يجثم عليك ويمنع حركتك ويكتم أنفاسك، وقاوم وقاوم وأنفاسه تضيق أكثر فأكثر و.. غاب عن الوجود..

*****

استيقظ (محمود) فزعًا كمن يستيْقظ من كابوس، نظر حوله، ليجد نفسه في فراشه في حجرته في القصر، عاد يجوب أرجاء الحجرة بناظريه.. حلم!.. كابوس.. لا.. حتمًا لا.. نهض إلى النافذة وأزاح الستارة.. الغيوم تبددت والسماء زرقاء صافية إلَّا من بضعة طيور.. وتألَّق نهر هدسون تحت ضوء شمس الضُحى بمياه زرقاء كأنه يحتفي بالشمس بخلع ثوبه الرمادي.. زوارق سياحية ومراكب شراعية صغيرة تشق طريقها في سطحه.. وجبال كاتسكيل في الخلفية خضراء زاهية.. حدائق القصر والطبيعة على جانبي النهر تبدو سعيدة مبتهجة بعد أن زالت عنها كآبة الشتاء في الأيام الماضية.. وأمام القصر.. السَيِّد (هاجارد) جالس إلى مائدة صغيرة يستمتع

بشمس الضحى وهو يرتشف قهوته ويتصفح شيئًا ما في حاسوبه اللوحي، كان كُلّ ما تراه عينا (محمود) يدعوه للخروج للاِحْتفاء بهذا اليوم المُشمس، وقَبِل الدعوة.. وأسرع يستبدل ثيابه ويهبط بسرعة، ليقابله في الطابق الأرضي خادم السَيِّد (هاجارد)، والذي نظر إليه في دهشة أخفاها بأدب وهو يومئ برأسه قائلًا:

- سَيِّد (محمود)! لقد استيقظت..

دهشة!.. تعجب!.. هل من الغريب أن يستيقظ؟!.. قال:

- نعم يا (جاسكل)، لقد استيقظت.

واصل طريقه و(جاسكل) يقول والدهشة لم تفارقه بعد:

- السَيِّد (هاجارد) في الحديقة الأمامية.

محمود وهو يحث رجليه:

- أعلم، أنا ذاهب إليه.

خرج من مدخل القصر إلى الشمس، وشعر بصفعة رقيقة كقشعريرة تهزُّ جسده كُلّه، وسار إلى حيث يجلس السَيِّد (هاجارد)، وشعر الأخير بقدومه ورفع رأسه لتبدو عليه الدهشة ويهتف:

- محمود! لقد استيقظت!

نعم لقد استيقظ.. ماذا أصابهم؟ أكانوا لا يتوقعون استيقاظه؟ أم يتمنون أنْ لا يستيقظ؟..

صرف نفسه عن هذه الأفكار، قال:

- نعم، لقد استيقظت.

وأردف:

- لماذا يثير استيقاظي استغرابكم؟

السَيِّد (هاجارد).. متعجبًا.. متسائلًا:

- استغرابنا؟!

جذب (محمود) مقعدًا ليجلس عليه، قال:

- أنت.. جاسكل..

نظر السَيِّد (هاجارد) إلى لا شيء على المنضدة أمامه، قال:

- بعد ما حدث بالأمس، نتوقع استيقاظك بعد يومين.

وثبت الدهشة إلى وجه (محمود)، ترك أمر الجلوس، هتف:

- يومين!.. ما حدث بالأمس!

السَيِّد (هاجارد)، متعجبًا:

- أنسيت مغامرتنا الصغيرة بالأمس؟

محمد:

- أي مغامرة؟

هنا وجدت الدهشة وجه السَيِّد (هاجارد) مكانًا أفضل لها، وهو يقول:

- ذهابنا إلى لقاء سَيِّد الظلام.. النفق.. القصر.. سقوطك.. هل نسيت كل هذا؟

اتخذ (محمود) مجلسه ببطء تغبطه عليه السلاحف، وهو ينظر إلى اللا شيء على المنضدة، وأخذ يطارده هو يفر إلى الأشجار قُبالة القصر، بوهن:

- ظننته كابوسًا.

السَيِّد (هاجارد).. بهدوء:

- حسنًا، لم يكن كابوسًا، لقد فقدت الوعي وهو أمر طبيعي وحملتك إلى...

ترك (محمود) المطاردة والتفت إلى جليسه ليقاطعه في دهشة:

- حملتني! كيف؟

السَيِّد (هاجارد).. مبتسمًا.. واثقًا:

- أنا لا يسيطر عليَّ النور، ولا تفلح ألاعيبه معي، كنت أعلم أنني قادر على حملك، بل صنعت يقينًا أنَّ وزنك لن يزيد عن وزن رضيع، لذلك حملتك بسهولة إلى فِراشك.

محمود على حاله، قال:

- بهذه السهولة!

بقهقه أنيقة ~ إن كان هناك شيئًا كهذا ~ عقَّب السَيِّد (هاجارد):

- نعم، بهذه السهولة يا (محمود)، أهلًا بك في قواعد وقوانين الظلام.

و نظر إلى (محمود) متابعًا:

- المهم الآن أنَّك صرت جنديًا في جيش سَيِّد الظلام وخادمًا له.

إهانة!.. بُشرى؟.. لا يعلم (محمود).. قال:

- لا أجد تعقيبًا على قولك، آفرح أم أغضب؟

شدَّ السَيِّد (هاجارد) جذعه.. في غضب.. في صرامة، قال:

- بل تفرح وتفتخر يا سَيِّد (محمود)، لقد صرت جنديًا في أعظم معركة في تاريخ الكون، وخادمًا لسِيِّد الكون القادم، سَيِّد الظلام.

كلمات كبيرة.. ضخمة.. مزخرفة.. تصلح مفردات في قصة خيالية..

ساد الصمت برهة، عاد فيها (محمود) إلى مطاردة اللا شيء بين الأشجار..

- وماذا بعد؟

ألقى (محمود) بسؤاله ليقطع الصمت، ويقطع الطريق على الجواب حضور الخادم (جاسكل) وهو يحمل صينية كبيرة، انحني قليلًا وهو يقول:

- أرجو أن يغفر لي السَيِّدان المقاطعة، ولكنني سمحت لنفسي بإعداد وجبة إفطار صغيرة لأجل السَيِّد (محمود).

لماذا يبدو لي أنَّ (جاسكل) مُعجب بالنمط القديم للخدم ويحاول تقليده؟!

تعالت من الرجلين كلمات الشكر والثناء، وشرع (جاسكل) في صف الأطباق بأناقة واحترافية أمام (محمود)، فرغ وسأل مخدومه وضيفه إذا ما كانا يرغبان في شيء ما.

وتناول (محمود) إفطاره بنهم وهو يستمع إلى السَيِّد (هاجارد) يُجيب سؤاله، ~ الحمد لله لم يصف طعام الإفطار، والغريب أنَّه لم يدعِ مُضيفه ليتناول "لقمة" معه ~..

* * *

12

تحوُّل

"أسرع إلى الباب، وأمسك بمقبضه، ليجد أنَّه يقبض الهواء.. ماذا حدث؟ وحاول مرَّة تلو الأخرى.. بلا فائدة.. بحذر مد يده عبر الباب و.. واخترقت الباب.. وبذعر جذب يده إلى جانبه.. استغرق الأمر منه ساعة كاملة حتَّى حسم أمره وأتته الشجاعة و.. اخترق الباب ليجد نفسه يطل على البهو الواسع.."

بأناقة، نعم بأناقة، كل ما يفعله السَيِّد (هاجارد) يفعله بأناقة، سكب القهوة في فنجانين وهو يقول:

- لا يوجد الكثير فيما بعد يا (محمود)، ستصير جنديًّا في جيش الظلام وخادمًا لسَيِّده، عملية التحول تستغرق ثلاثة أيام أو أسبوع حسب درجة التلوث بالضوء.

ازدرد (محمود) ما في فمه، تساءل:

- ثُمّ؟

تأمّل السَيِّد (هاجارد) قهوته، قال:

- ثُمّ يتم إخبارك بمهمتك وإعدادك لها وكيفية القيام بها.

وعيناه في عينيه، تساءل (محمود):

- وأنت؟

من (محمود) إلى السَيِّد (هاجارد)، وثبت نبرة الاستفهام:

- أنا! ماذا عنّي؟

محمود:

- متى صرت جنديًّا لهم؟

بأسى.. بأسف.. بفراره بعينيه بعيدًا.. أجاب السَيِّد (هاجارد):

- لست جنديًّا لهم.

علَّق (محمود) بدهشة:

- ماذا؟ لست جنديًّا لهم! كيف؟ لماذا؟

قَطَرَ الأسى مع كلمات السَيِّد (هاجارد):

- كان هذا قرار السادة، مهمتي هي التبشير بالظلام وإظهار حقيقة النور، وجمع الجنود والأتباع تحت راية الظلام، استعدادًا للمعركة الحاسمة، ويقوم بمعاونتي في مهمتي (جاسكل) و(بيتر) و(هينكر).

بيتر هو الخادم الآخر، و(هينكر) هو السائق، ولم يجد (محمود) لهذا الأسى سوى هذه المواساة:

- تعني أنَّك جنديّ في مهمة أخرى تختلف عن مهمتي!

بألم.. بحرقة.. بعينيه في عيني (محمود)، قال السَيِّد (هاجارد):

- أنت لا تعلم مقدار الشرف العظيم الذي حظيت به، بعد يومين أو أكثر قليلًا ستصير منهم، ستصبح قادرًا على رؤية عالمهم، ستصبح قادرًا على قراءة علومهم، سيُفتح أمامك العالم القديم بكل علومه وأسراره، ستصير قادرًا على زيارته وسبر أغواره، ليس كحالي، يتفضلون عليَّ بما يكفي لإنجاز مهمتي فقط والعيش برفاهية فقط، ليس لهذا جئت إليهم، وسعيت لخدمتهم، أنا كنت أجدُّ في البحث عن علوم العالم القديم، حتَّى وجدت الطريق إليه.. إليهم، فإذا بهم يخبرونني أنني لا أصلح للاِنضمام إليهم، ومهمتي ستكون هي التبشير بعالم جديد، عالم الظلام، وحشد الجنود والاتباع لهذه المهمة العظيمة، مقابل ماذا؟ علوم بسيطة تجعلني أبدو كساحر عظيم فقط، أنَّهم لا يخبرونني بحقائق هذه العلوم وأسرارها بل كيف تستخدمها، لا يخبرونني كيف يُصنع الشيء بل كيف يُستخدم.

الألم.. الحزن.. الأسى.. الخذلان في كلمات السَيِّد (هاجارد)، دفع بالإشفاق إلى قلب (محمود)، فقال:

- لا داعي للأسف، سأقوم بإطلاعك على كل ما يقع تحت يدي من علوم العالم القديم.

نظرة شكر وقنوط وهزَّة رأس، هذا ما ناله (محمود) على إشفاقه وتعاطفه..

* * *

سألت:

- متى أدركت الخديعة؟ وعلمت أنَّ السَيِّد (هاجارد) يخدعك.

محمود:

- لم يخدعني السَيِّد (هاجارد)، بل يمكنك القول إنَّه مخدوع.

استغربت كلامه، قلت:

- مخدوع! كيف؟

محمود:

- لأنه لا يستطيع رؤية العالم الآخر أو الوصول إليه، هناك بوابات يستطيع الوصول منها إلى ذلك العالم، ولكن بشروط وقيود محددة.

- وكيف ترى أنت ذلك العالم الآخر؟

- هل تعرف عالم الجِن؟

- أعلم أنهم يشاركوننا هذا العالم، ويروننا ولا نراهم.

محمود:

- عالم الظلام يشغل الحيّز الذي يشغله عالمنا، ولكن بتضاريس ومعالم مختلفة، ويعبر أهله إلى عالمنا عبر بوابات خاصة.

-استطيع تخيّل هذا، المهم.. أخبرني.. متى اكتشفت الخديعة؟

محمود:

- في البداية لم أشعر أنَّ هناك خديعة، كنت أزداد قتامة وإعتامًا كل حين، وفي مساء اليوم الثالث من ذهابنا لعالم الظلام صرت رجلًا أسود لا أختلف عن أي رجل زنجي تراه، الاختلاف يظهر في العينين، كانتا تزدادان قتامة مع باقي الجسد، ومع صباح اليوم الرابع صرت كالهيئة التي تراها الآن، الأمر المخيف هو الانفصال عن عالمنا، مع الوقت أصبح الحديث مع السَيِّد (هاجارد) شاقًا، في المرَّة الأخيرة قال: إنَّه يسمعني بصعوبة شديدة كأنني أتحدث معه من مكان بعيد جدًّا.

سألته:

- والكتاب؟ ماذا عنه؟

محمود:

- الكتاب؟ أي كتاب تعني؟

- الذي أهداك إيَّاه السَيِّد (هاجارد).

- لا فائدة منه، مع اكتمال التحول لهذه الصورة، صرت قادرًا على على رؤية الصفحات وتمييز الكلمات، ولكنه مكتوب بلغة غريبة عن عالمنا، فلم استطع قراءته.

- ألم تشعر ذلك الحين بالخديعة؟

- نعم، لم أشعر بها، شعرت بها فيما بعد.

- متى.

- سأخبرك.

***

رغم أمر الانفصال عن عالمنا، شعر (محمود) بمزايا التحول والوضع الجديد، وأوّل ميزة أذهلته هي التجول في القصر وما حوله بلا قيود ولا حدود، يشعر بأنه يطفو ولا يسير، ويذهب من مكان لآخر بسهولة عبر الأبواب والحوائط دون الحاجة للمرور بالمسالك الطبيعية، وقد اكتشف هذا بطريقة مخيفة..

استيقظ (محمود) في صباح اليوم الرابع مع إحساس غريب جدًّا، أنَّه يطفو على سطح ماء، جسده خفيف جدًّا، كأنَّه بلا وزن أو كتلة، والغريب بلا غطاء، ولا حاجة لدخول الحمام، نهض لينظر من النافذة كعادته، ولكن المرآة استوقفته بأمر غريب، لقد كانت تعكس كل شيء في الحجرة باستثناءه هو.. لوهلة ظنَّ أنَّه يتوهم ذلك.. تقدم من المرآة.. لا شيء.. حرّك ذراعيه.. لا شيء.. أخذ يقفز في موضعه ويشير بيديه.. لا شيء.. المرآة تُصر على تجاهله وحذفه من عالمها..

لا يعلم ماذا يفعل؟ آه.. السَيِّد (هاجارد).. رُبَّما الحديث أصبح شاقًا ولكن التواصل لا يزال ممكنًا، أسرع إلى الباب، وأمسك بمقبضه، ليجد أنَّه يقبض

الهواء.. ماذا حدث؟ وحاول مرَّة تلو الأخرى.. بلا فائدة.. بحذر مد يده عبر الباب و.. واخترقت الباب.. وبذعر جذب يده إلى جانبه.. استغرق الأمر منه ساعة كاملة حتَّى حسم أمره وأتته الشجاعة و.. اخترق الباب ليجد نفسه يطل على البهو الواسع.. وأسرع إلى حيث السَيِّد (هاجارد).. أنَّه يجلس في حجرة المكتب الصغيرة وأغلب الأوقات في حجرة المعيشة.. ولم يفطن (محمود) إلى طبيعته الجديدة، واتخذ المسار الطبيعي إلى حجرة المعيشة، ووجد السَيِّد (هاجارد) في جلسته المعتادة، جالسًا أمام النافذة يقرأ كتابًا ما، وبجواره على المنضدة الصغيرة فنجان قهوة وصندوق مُعدات الغليون، وغليونه يتصاعد منه دخان خفيف..

- سَيِّد (هاجارد)، سَيِّد (هاجارد).

لا يبدو أنَّ السَيِّد (هاجارد) يسمعه، استدار ليقف أمامه، ورفع السَيِّد (هاجارد) رأسه، ونظر بدهشة، هتف:

- محمود! متى جئت؟

والهلع حاله وفي كلماته، هتف (محمود):

- انجدني يا سَيِّد (هاجارد)، لا أعلم ماذا أصابني؟ ~ (محمود) لقد اكتملت ~ ماذا حدث لي؟ ~ في أقصر وقت ~ وجدت نفسي لا استطيـ ~ يحتاج في العادة إلى ~ وأعبر الباب، لا توجد لي صورة في المرآة ~... ~..

أدرك (محمود) أنَّ السَيِّد (هاجارد) لا يسمع ما يقوله، كيف؟ أنَّه يسمعه بوضوح فكيف لا يسمعه..

شعر بالخوف.. بالانهيار.. ووجد نفسه يُهرع إلى خارج القصر، والسَيِّد (هاجارد) من خلفه يناديه ويطلب منه الانتظار.. وعبر (محمود) باب القصر إلى أمامه.. إلى شمس الهاجرة.. بل إلى الجحيم.. أشتعل جسده كُلّه نارًا.. كأنَّ هناك من يسكب عليه شلالًا من اللهب.. وصرخ (محمود).. في ألم.. في رعب.. في عذاب لم يعرفه يومًا.. عذاب لا يصدق أنَّه موجود.. وركض خطوات قبل أن يسقط أرضًا.. ويواصل التدحرج والصراخ.. صراخ لا يسمعه أحد..

وجاءت النجدة من ربِّ العالمين، تدحرج جسده إلى ظل شجرة.. وشعر بالنيران تُطفأ ويحل محلها حرارة عالية، كانت للجحيم الأوَّل بردًا وسلامًا.. وأخذ يشهق أنفاسه وهو ينتحب بشدَّة..

ووجد السَيِّد (هاجارد) ينحني فوقه، ويقول:

- محمود، ما فعلته كان خطأً، لقد اكتمل انتقالك إلى الظلام، لا تستطيع الظهور تحت الشمس، أنا لا استطيع سماعك، لكنك تستطيع سماعي، سيجلب (جاسكل) لك غطاءً، ستسير تحته وتعود للقصر.

حضر (جاسكل) حاملًا قطعة قماش كبيرة، فردها وأمسك بجانب والسَيِّد (هاجارد) بالجانب الأخر لتصبح أشبه بالمظلة.

برفق، قال السَيِّد (هاجارد):

- محمود، قف تحت الغطاء وسرْ معنا، احرص في أثناء سيرك أن لا يسقط شيء من ضوء الشمس عليك.

فعل (محمود) كما أمره السَيِّد (هاجارد) وسار تحت الغطاء إلى أن دخلوا جميعًا القصر..

*** * ***

عقد السَيِّد (هاجارد) يديه وراء ظهره، وهو ينظر إلى جبال (كاتسكيل) البعيدة، و(محمود) جالسًا على مقعد، كتلة سوداء لا يميزها شيء.

بشرود شاعر مُلهم، قال السَيِّد (هاجارد):

- لقد تفاجأت بوجودك وحضورك إليَّ، عادةً يختفي من يكتمل انتقالهم للظلام، وأعني يأتي من أرض الظلام من يأخذهم إلى حيث يؤدون المهام المنوطة بهم، وهذا يحدث عند تمام التحول كما هو أنت الآن، لا زلت هنا، لماذا؟ لا أعلم، ولكنك تجهل كنه طبيعتك الحالية، لقد صرت من جنس الظلام، وطبيعتك تختلف عن طبيعة البشر، الآن تستطيع الذهاب حيث تشاء وقتما تشاء، تخترق الأبواب والجدران والعوائق بسهولة، الأمر مرهون بمشيئتك، منذ الآن لن تكون هناك حاجة للنوم أو الطعام، سترى وتسمع عالمنا، ولكنك لن تستطيع التفاعل معه، لن تستطيع الأمساك بشيء، ولكنك تستطيع النفاذ من خلاله، لن يراك النور في مكان حتَّى يهاجمك.. ينقض عليك.. يريد أنْ يقتلك أو يبدد الظلام إن استطاع، لن تستطيع الظهور تحت ضوء الشمس المباشر، وضوءها غير المباشر ألم ومعاناة، أضواء المصابيح ستسبب لك ألمًا خفيفًا وسترى نورها يترك كل شيء ويسعى

إليك، يريد أنْ يبدد الظلام، لن تستطيع التواصل مع البشر، ستراهم وتسمعهم ويرونك كتلة سوداء تتخذ هيئة البشر ولا يسمعونك، فقط من هو من عالم الظلام تستطيع سماعه، هل أدركت واقعك الحالي؟

رفع (محمود) ذراعه وجعل أصابعه على هيئة إشارة الموافقة..

بعد أن ذهب الروع عن (محمود)، بدأ يستمتع بحالته الجديدة، ويخترق الجدران ويذهب حيث يشاء داخل القصر ويطوف به، وذهب إلى حيث الكتاب الذي أهداه إليه السَيِّد (هاجارد)، ولم يَحتجْ إلى فتح الصندوق، مد يده خلال الصندوق المغلق وأخرج الكتاب البنفسجي بزخرفته الذهبية، وأوراقه الداكنة وكلماته البنفسجية، وتصفحه ولم يستطع تمييز اللغة التي كُتب بها، لوهلة تبدو كالإنجليزية المكتوبة بخط اليد، كتابة أنيقة مائلة، ثم تفطن أن لا علاقة لها بالإنجليزية، ولا بأي لغة على وجه الأرض، وأغلق الكتاب وعاد إلى السَيِّد (هاجارد)، واستطاع بواسطة لوحة حروف كالتي تستخدم لتعليم الأطفال الحروف أن يتحدث مع مُضيفه.

السَيِّد (هاجارد):

- لقد طلبت من (هينكر) شراءها من مكتبة البلدة.

جرت يد (محمود) على اللوحة، والسَيِّد (هاجارد) يقرأ بصوت عالٍ:

- شكرًا لك، إنَّها فكرة عبقرية.

لوح الحروف فتح نافذة أمل لـ (محمود) في التواصل مع البشر، أمل تبخر مع مغامرته الليلية.

من الخوف للاستمتاع بحالته الجديدة، شعر بأنَّه صار قويًّا.. قادرًا.. خارقًا.. عبور الجدران والموانع أعطاه إحساسًا بالمشيئة.. بالإرادة.. وقف (محمود) يرقب بيتًا صغيرًا وشاهد أصحابه وهم يقومون بأمورهم، وتقدم في حذر وهو يشعر بانحياز الضوء إليه، وشعر بحرارته ترتفع، ولم يهتم، تقدم ونظر من النافذة ليجد الأسرة مجتمعة إلى مائدة العشاء ومنهمكة في أحاديث كثيرة، هذه فرصته، وببهجة طفل شرع ينتقل بين أجزاء البيت، ينظر هنا وهناك، ويرى ما في داخل الحجرات، وعبر مرَّة حجرة ليجد فتاة مضطجعة على سريرها وهي تمسك بحاسوب لوحي، وحدث انحياز الضوء فالتفتت الفتاة.. ورأته.. الأصح رأت كتلته السوداء.. وأطلقت صيحة فزع وأخذت تصرخ تطلب النجدة، وأسرع هو يغوص في الجدار ويفرّ هاربًا..

في البيت الآخر كان واقفًا في المطبخ، حين دخلت سَيِّدة المنزل.. شهقت.. سقطت فاقدة الوعي..

مغامرات صغيرة أدرك معها (محمود) أن التواصل مع البشر لن يكون سهلًا ولن يقبلوا به.. فهو لهم أشبه بالشياطين والأشباح والعفاريت..

عاد إلى حجرته وقد آلمته هذه الحقيقة، ويفكر في..

-أين كنت؟

بفزع التفت إلى الصوت، وارتطمت عيناه براهب من الرهبان الذين رآهم في عالم الظلام، ظلمة تضع ثوبًا، جمد في مكانه لا يعلم ماذا يفعل، برهة.. بمشقة سحب نفسًا ليتكلم به، فخرج صوته متعثرًا:

- أن.. أنا.. كن.. كنت في.. جوار.

الراهب:

- هيا بنا.

بحروف تبحث عن مخارجها، قال (محمود):

- إل.. لى أي.. ين؟

وأتاه الجواب بأن وجد نفسه يقف مع الراهب على حافة جرف جليدي، والثلوج تحيط بهما، وأسفل الجرف، عشرات.. بل مئات من الأشخاص في حركة دؤوب في مكان أشبه بالمصنع الضخم..

*** * ***

سألته:

- ماذا يفعلون؟

محمود:

- يطفئون الشمس.

*** * ***

13

الريح السوداء

"هناك طريقة لم أخبرك بها، الريح السوداء.. ريح تغطي منطقة صغيرة بالظلام لبضع ثوان، ليست فعالة، ولكنني لاحظت أكثر من مرّة ظلامًا غريبًا، ظلام كظلامهم، يلفّ بلدنا أكثر من مرَّة عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ظلام مختلف، في البداية كان ثوان قليلة وكل ليلة يزداد رويدًا رويدًا، وأوشك أن يقترب من الدقيقة، وحتمًا سيزداد ليشمل الليل والنهار"

يبدو أنني هرمت، ولم أعد اسمع جيِّدًا، سألته:

- ماذا؟

جاءني الجواب بصوت قوي جعلني اطمئن على نفسي، قال (محمود):

- يطفئون الشمس.

كررت قوله بدهشة:

- يطفئون الشمس! كيف؟

محمود:

- بنور يطفئ ضياءها، نور من العالم القديم، يصطدم بضوء الشمس فيحيله ظلامًا.

لم تتركني الدهشة وأنا أسأله:

- أيستطيعون ذلك؟

حركة رأس (محمود) تشي بإيماءة، قال:

- نعم، كل ما يفعلونه يخبر بذلك، وعملهم يوشك على الأكتمال لولا كلمة.

لا حيلة للدهشة في أن تترك وجهي، رددت:

- كلمة!

محمود:

- نعم، كلمة، كل شيء مكتمل باستثناء قطعة واحدة من الحجر، حجر من العالم القديم، هذه القطعة لا تعمل حتَّى يُنطق بكلمة تُعيد إليها طبيعتها.

لا جديد.. لا تغيير.. هتفت:

- كلمة! أتعني كلمة مثل الكلمات التي ننطق بها أم تشير إلى شيء آخر؟

محمود:

- كلمة مثل الكلمات التي ننطق بها، ما استطاعوا إنجازه هو إطفاء النور في نطاق صغير كما فعلت أنا في بيتك، بدون الكلمة لن يستطيعوا فعل ما يرغبون.

- رُبَّما لن يستطيعوا ذلك، رُبَّما كان ذلك وهمًا، رُبَّما لن يعثروا على الكلمة.

بيقين علَّق على حديثي:

- كلَّا، ليس وهمًا، لقد رأيت تأثير الكلمات بأم عيني، وعدم العثور على الكلمة هو مسألة وقت لا أكثر، والبديل موجود.

أثارت الجملة الأخيرة انتباهي، ورفعت رأسي إليه، سألته:

- البديل موجود! ما هو؟ لماذا لا يستخدمونه؟

محمود:

- البديل يحتاج شروطًا محددة، منها حدوث كسوف كُلّي للشمس في ساعة محددة، مع خسوف كُلّي للقمر في الليلة السابقة، وهذا سيحدث في شهر فبراير من السنة القادمة، وستكون العملية معقدة، والعثور على الكلمة سيُغني عن ذلك، ويجعل تنفيذ الأمر رهن إشارتهم في أي وقت.

تفكرت في ما يقول، لا أعلم لماذا ينتابني شعور بأنَّهم لن يستطيعوا فعل ذلك؟ ولكن تجاهلت ذلك، سألته:

- لم تخبرني بعد، ما دورك في هذا؟ متى شعرت بالخديعة؟

لم يجبني على الفور، ولبث لحظات كمَن يبحث عن إجابة، أجاب:

- كان دوري كدور الآلاف الذين تم جلبهم بواسطة السَيِّد (هاجارد) وسواه، أن نقوم بأمور لا يستطيع أهل الظلام القيام بها، في البداية ظننت أنني وأهل الظلام صرنا نملك كيانات متماثلة، والحقيقة أننا نختلف، لا زلنا قادرين على التعامل مع أشياء لا يستطيع أهل الظلام الاقتراب منها، الغريب أنَّها مواد مظلمة من العالم القديم، نتعامل معها بسهولة وهم لا يستطيعون الاقتراب منها، الاقتراب منها يعني الهلاك لهم، في بداية الأمر كنت مبهورًا بما أراه، بما أفعله، رأيت عالمًا مختلفًا لا تراه إلَّا في الخيال، علوم مختلفة، قواعد وقوانين أخرى، ومع الوقت أدركت الحقيقة المُفزعة، لم نكن سوى عبيد لديهم، عبيد لمهمة محددة، مصيرنا ومصير البشريَّة كُلّها ليس له أهمية، بل يمكنك القول أنَّ مصيرها هو الفناء أو العبودية لقوم ليس في قلوبهم إلَّا الحقد والكراهية لجنسنا...

الدهشة هي ما أملكه لحديثه، فسألته مقاطعًا:

- حقد وكراهية! ولم؟

- يؤمنون أنَّ هذا العالم وهذه الأرض ملك لهم، وأنَّهم طُردوا منها بعد أن سُلبت منهم، وهم يحاولون استعادتها والانتقام باستعباد أهلها أو إفنائهم.

أبطأ الحذر كلماتي، وأنا أقول:

- هل أخبروك بهذا أم سمعتهم؟

محمود:

- لا هذا ولا ذاك، لقد أدركت هذه الحقيقة مما نقوم به، خُلق البشر لعالم النور، هل يمكن العيش بلا شمس؟ كَلَّا، غياب الشمس سيؤدي لفناء

البشريَّة، قد يستطيع البشر الرؤية في الظلام بالإدراك، ولكن الحياة! مُحال، أجساد البشر تحتاج الشمس، النبات والشجر والحيوان وكُل مما يأتي منه غذاؤهم يحتاج الشمس، أخبرتهم بذلك، فتجاهلونني، ومع اِقتراب ما يقومون به مَن نهايته، ظهرت حقيقتهم، لا ينظرون إلينا إلَّا عبيدًا، الاحتقار.. الازدراء.. وأحيانًا الأذى الجسدي.. هنا أدركت الحقيقة.. فررت منهم.. حاولت تحذير من أصل إليه من البشر، ولكن الخوف والفزع يدب فيهم من رؤيتي، ولا أدري ماذا أفعل؟

- والسَيِّد (هاجارد)؟! هل يعلم بذلك؟ هل سعيت للوصول إليه؟

- السَيِّد (هاجارد) لا يعلم شيئًا من هذا، أنَّه يؤمن بأكاذيبهم، ولقد ذهبت إلى قصره، فوجدت عدد من رهبانهم هناك، فررت مرة أخرى، وعدت إلى هنا.. عاجزًا عن فعل أي شيء لنفسي أو للبشريَّة، وأدركت مع الوقت أنَّهم ماضون في سعيهم ويتقدمون، ولا استطيع تحذير الناس والعالم منه، وحيد، غريب، لا يعلم ماذا يفعل؟ منفصل عن عالمه الذي يسير إلى الظلام والنهاية، لك أن تتخيَّل دهشتي وسعادتي حين أدركت أنَّك تسمع بكائي، ذُهلت وفررت من المكان، وحين تمالكت نفسي، أدركت أنَّ الفرصة التي أبحث عنها قد جاءتني، فعدت إلى المطعم وراقبتك من بعيد، ثم تبعتك إلى منزلك.

ارتفع رنين هاتفي، ورغبت في تجاهله، قال (محمود):

- أجبه، لقد فرغت من حكايتي.

تناولت الهاتف، كانت (زينب) تسأل عن مكاني وهل سأطيل الغياب؟ أم ينتظرونني للغداء؟ أخبرتها أنني سأتأخر قليلًا، ولا داعي لانتظاري.

كان هناك شيء أرغب في السؤال عنه، وهو.. وهو.. وهو.. ماذا؟ هل صرت كلبًا؟ آه.. هذا هو.. سألته:

- كيف علمت أنَّهم ساعون ويتقدمون؟

- هناك طريقة لم أخبرك بها، الريح السوداء.. ريح تغطي منطقة صغيرة بالظلام لبضع ثوان، ليست فعالة، ولكنني لاحظت أكثر من مرّة ظلامًا غريبًا، ظلام كظلامهم، يلفّ بلدنا أكثر من مرَّة عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ظلام مختلف، في البداية كان ثوان قليلة وكل ليلة يزداد رويدًا رويدًا، وأوشك أن يقترب من الدقيقة، وحتمًا سيزداد ليشمل الليل والنهار.

لا أعلم ماذا أقول!.. الحيرة تتملكني.. قلت:

- حسنًا.. والآن.. ماذا تريد مني؟

سؤال أعرف إجابته وعاجز عن إجابته.. قال (محمود):

- أريد مساعدتك، اريدك أن تنقذ عالمنا، علينا منعهم من تدمير أرضنا، يجب أن تساعدني على العودة إلى حالتي الطبيعية، لن أبق هكذا للأبد، يجب أن أعود لحياتي الطبيعية.

والحيرة والعجز في كياني، وجدت نفسي أهتفت:

- كيف؟ أخبرني أنت كيف؟ هل لك أن تتخيلني وأنا ذاهب إلى الشرطة أو أي جهة حكومية؟ أخبرهم بما قلته، ماذا ستكون ردود أفعالهم؟ من أي مصحة للأمراض العقلية هربت هو أهون ما سأواجهه.

بصوت يئوس، قال (محمود):

- يجب أن تفعل شيئًا، يجب أن تنقذ عالمنا، يجب أن تنقذني، أنا بحالتي هذه لا استطيع فعل شيء، بل لا استطيع الاتِّصال بأحد من البشر، أنت لا تستطيع، مَن يستطيع؟

- أنا أستطيع.

دوت هذه الكلمات بيننا ودفعتني للالتفات إلى مصدرها، لأجد (عبد الكريم) واقفًا بالقرب من باب المكتب الخاص بالضيوف، وعيونه تقذف باللوم عليَّ، وبلا وعي هتفت:

- عبد الكريم!

أضاف العبوس إلى اللوم، قال:

- نعم، (عبد الكريم)، لماذا أزلتها؟

لوهلة لم أعرف عمَّا يتكلم، ثم فطنت للأمر حين خمنت كيف دخل مكتبي بدون أن نشعر به، أنَّه يشير إلى القطع التي وضعتها حول منزلي لمنع الدخول إليه بوسائل غريبة، وقد رفعتها بعد الانتهاء من مسألة (سعيد) و(صابر) وحديثي مع جاري (أبي صلاح)، لم أرغب أن تثار الأقاويل عن بيتي وأنَّه مسحور لا يظهر في الصور.

حان وقت الدهشة، دُهشت من حضوره، سألته:

- كيف...

قاطعني (محمود) يسأل في دهشة:

- أتسمعني؟

التفت (عبد الكريم) إليه، قال:

- نعم، أسمعك.

أكملت سؤالي:

- عثرت علي؟ لم لم تهاتفني؟

محمود والدهشة في صوته:

- ك.. كيف تسمعني؟

عبد الكريم:

- لي وسائلي.

والتفت إليَّ، تابع:

- كما عثرت عليك في مسألة (صابر)، الأمر يحتاج إلى لقائك وجهًا لوجه.

أنتابني الضيق، قلت:

- هذه الأساليب.. ماذا لو كنت في الحمام؟!

دُهش.. ابتسم، قال:

- لا تقلق.

وعادت الجِدِّيَّة تتقمصه، وقعد إلى جواري على الأريكة، قال:

- لقد أضعت وقتًا طويلًا في البحث عن الشيء الخطأ، كنت أبحث عن الظل، وكان يجب البحث عن الظلام لا الظل، فهما شيئان مختلفان وإن اتفقت

طبيعتهما، المهم أنَّ عالمنا في خطر عظيم، وأهل الظلام هم أوَّل الغيث، قريبًا سَتُفتح البوابات، وتبدأ العوالم الأخرى في التدفـ..

قاطعته:

- بوابات؟! أي بوابات التي تتحدث عنها؟

عبد الكريم:

- البواباب التي تربط عوالم الخرافات والأساطير - أو التي نحسب أنَّها خرافات وأساطير - بعالمنا، عوالم يسعى كل منها للسيطرة على الآخرين وأراضيهم، المعركة الأخيرة التي انتصر فيها أهل الظلام أو شعب (أوكّو)، لذلك أصبح الظلام في وجدان البشريَّة رمزًا للجهل والخوف، وعالمنا لم ينتصر ولكنه نجا، أُغلقت البواباب وعاد الجميع إلى عوالمهم إلّا شراذم قليلة، ولكن عالمنا كان تحت سيطرة الجحافل المُتبقية من شعب (أوكّو)، كانت هزيمتهم سهلة ومستحيلة في نفس الوقت، هزيمتهم تحتاج نورًا صافيًا، ولا يوجد نور صاف، أفضل نور صاف أدركه البشر هو نور القمر، ولم يكن كافيًا، مع الوقت وجد البشر الوسيلة، ومُحقت جيوش شعب (أوكّو)، واستعادت البشريَّة أرضها وشمسها.

كان هناك الكثير من الغموض في حديث (محمود) و(عبد الكريم)، الضوء والنور مختلفان، حقًا أنَّهما مختلفان، ولكن يؤديان ذات الغرض، فلم يقوم النور بما يعجز عنه الضوء؟ حين خرج (محمود) إلى الشمس شعر بأنه يحترق كأنَّه في جهنم، وهذا يعني أنَّ الشمس قادرة على تدمير أهل الظلام أو شعب (أوكّو)! فلماذا لا تكفي لهذا الغرض؟ لم الحاجة إلى نور صاف؟ ثم

أنَّ نور القمر هو انعكاس ضوء الشمس عليه، صحيح بعض الأفكار القديمة تقول إنَّ القمر جسم مُضيء بذاته، ولكنَّنا نتعامل بمفردات وعلوم حاضرنا، إذًا الاختلاف بين ضوء الشمس ونور القمر هو القوة فقط، فهل يحتاج القضاء على شعب (أوكّو) درجة محددة من الضوء؟ غموض.. لم أجد له حلًّا سوى طرحه بصوت عال..

محمود:

- حقًا لا أعلم، لقد أخبرتك قبل قليل أننا نستطيع التعامل والإمساك بأشياء مُظلمة من العالم القديم، كان الاقتراب منها فقط يؤدي لهلاك أهل الظلام.

عبد الكريم:

- لا تنس خلق الإنسان، الإنسان خُلق من طين، والإنسان والطين في طبيعتهما الحالية مختلفتان، بل الطين يؤذي الإنسان في ظروف معينة كأن يسقط فوقه.

محتارا.. عاجزًا.. قلت:

- محمود، لقد أحرقتك الشمس، وهي حتمًا تحرقهم لذلك يسعون لإطفائها، لذلك يجب منعهم من ذلك، هذا ما يجب أن يكون هدفنا.

أنشب (عبد الكريم) حديثه بحديثي:

- وإغلاق البوابة بين عالمنا وعالمهم.

بسرعة قال (محمود):

- وإعادتي لحالتي الطبيعية.

عبد الكريم:

- هذا يسير، النور الصافي الذي يقتلهم هو من يُعيدك إلى حالتك الطبيعية.

هتف (محمود):

- حقًا.

عبد الكريم:

- حقًا.

تذكرت شيئًا، سألت:

- قلت أنَّ البوابات ستُفتح قريبًا، متى؟

عبد الكريم:

- العام القادم سيحدث كسوف الشمس بعد ليلة يُخسف فيها القمر، هذه هي العلامة الأولى لاقتراب موعد فتح البوابات، ووستبدأ العوالم بالاستعداد لهذا الأمر.

الحيرة.. الحيرة.. الحيرة.. سألت:

- ولكن البوابة بيننا وبين شعب (أوكّو) مفتوحة منذ الآن!

عبد الكريم:

- أي بوابة تلك التي تتحدث عنها؟

بكلمات سريعة مُختصرة أخبرته بما أخبرني به (محمود)، وبعد حذف وصف المكان والطعام والشراب تجد أنَّ كل ما قاله (محمود) لا يتجاوز سطرين، حري بـ (محمود) أن يعمل في الصحافة بالقطعة، سيصبح ثريًّا..

عبد الكريم:

- مُحال، لا يمكن أن تكون بوابة، لوجدت شعب (أوكّو) عندنا منذ أمد بعيد.

سألت:

- إذًا ما هي؟

أخبرت إشارة كفي (عبد الكريم) أنَّه لا يعلم، أما (محمود) فعنده ما يقوله:

- هل تعلم؟ بعد ما قاله صديقك، أظن أنَّ الأمر لا يعدو عن برزخ بين عالمنا وعالمهم و..

قاطعه (عبد الكريم):

- صدقت، علوم العالم القديم تتحدث عن برزخ تطل عليه جميع العوالم.

تساءلت:

- أتعني أنَّ ما رآه (محمود) هو البرزخ، ماذا يفعلون فيه.

عبد الكريم:

- حتمًا يحرصون البوابة إلى عالمهم.

سألته:

- وما الحاجة إلى ذلك؟ لقد أُغلقت البوابات كما تقول!

عبد الكريم:

- البوابات المؤدية للبرزخ تُفتح في آن واحد حين تحقق شروط معينة، وكل عالم تُفتح بوابتة فقط حين تتحقق شروط خاصة به، لذلك...

قاطعه (محمود):

- دعنا من كل هذا، كيف نمنع شعب الظلام من تدمير عالمنا؟ والأهم كيف تعيدونني إلى حالتي الطبيعية؟

هذا بعد أن فعل فعلته التي سعى لها، يريد منّا أن نُكفِّر له أعماله وننصح له أخطاءه!.. إنَّ هذا لزمن العجاب..

عبد الكريم:

- بإيجاد مصدر للنور الصافي.

لأوَّل مرَّة شعرت بأنَّ لصوت (محمود) نبرة، نبرة ضيق وغضب، وهو يقول:

- كيف؟ أين؟ وكيف نعرف أين يقوم هؤلاء بأعمالهم حتَّى نمنعهم؟

عبد الكريم:

- لا يهم أن نعرف مكانهم، إذا امتلكنا النور الصافي فسوف يصلهم أينما كانوا، أما النور الصافي فالبشريَّة في معركتها الأخيرة استطاعت العثور عليه، واستطاعت أن تُضيء العالم به وهلكت جيوش شعب (أوكّو) على أرضنا، ثم جعلت النور الصافي في أربعة أماكن، جبل (أكونكاجوا) في الأرجنتين في أمريكة الجنوبية، وجبل (كليمنجار) في تنزانيا في إفريقية، وجبل (إفرست) في نيبال في آسيا، وجبل (إلبروس) في سلسة جبال القوقاز في أوروبا[4]، المعضلة الآن، لا أحد يعلم عنها شيء، ما املكه الآن هو رجل رُبَّما يستطيع أن يقودنا إليها، وعنده سنجد الحل لما نواجهه ولمشكلتك أنت.

أنتابني السرور إلى ما آلت إليه الأمور، وشعرت بأنَّ حملًا ثقيلًا أُزيح عن كاهلي، نهضت وبارتياح تكلمت:

---

[4] كل جبل من الجبال التي ذُكرت يعُتبر الأعلى في قارته.

- الحمد لله، هذا هو (عبد الكريم) سيقوم بمساعدتك، وسينجز المهمة.

لم تكتمل سعادتي، قطعها (عبد الكريم) بإلتفاتة إليَّ، ودهشة على وجهه، وقوله:

- أين تذهب؟

قلت وأنا أوحي إلى قدمي بالتريّث وعدم إظهار رغبتها بالفرار:

- إلى شئوني! لم تعد هناك حاجة لكم بي.

أفسد (عبد الكريم) أحلامي بقوله:

- نحن في حاجة إليك، اثنان أفضل من واحد، وثلاثة خير من اثنين.

نحن لا نعد أنفسنا لصلاة الجماعة، ولكنني أملك شيئًا لا يملكه أحدهما.. الجهل.. لذلك قلت:

- ولكنني لا أملك شيئًا أنفعكم به.

محمود:

- لقد بدأ زوال الغمة بك، فلم لا تشهد نهايتها؟!

يصرّ بشدَّةٍ - رغم عزوفي- على حشري في الأمر، لم أظهر رغبتي في ترك الأمر، مع يقيني بإدراكهما ذلك، قلت:

- هه.. ن.. نعم.. ولم لا؟

قليل من الجرأة وكنت سأصير خارج الأمر برمته، ولكنني وجدت نفسي فيه..

* * *

14

صريع القمر

"لحظات يحلو فيها الفناء.. تصير ذرات تتبعثر في الهواء.. يتلاشى كل ما يثقل كاهلك.. كل ما يشغل ذهنك.. تطفو في بحر النشوة.. نشوة لم تعرفها من قبل.. لم تدركها.. لم تتخيلها قط.. هل سمعت بصريع القمر؟.. هل علمت الآن ما يقصدونه بجنون القمر؟.. هذه الحكايات الآن تعيشها.. الآن تصدقها.. الآن تؤمن بها.. تلك حكايات القمر.."

ضاقت انفاسي.. اصطكت أسناني.. شرعت أشهق بقوة من خلالها محاولًا إدخال أكبر قدر من الهواء الثلجي الشحيح إلى صدري، وأنا انظر إلى الظلام الدامس حولي، وأضم معطفي الثقيل - الذي احتفظ به لأوقات الشتاء الشديدة البرودة- حولي.. البرودة شديدة.. أشعر بأصابعي تتجمد.. وجنتاي تلتهبان من البرد والرياح.. مقلتاي جافتان وجفناي يرمشان بسرعة..والرياح الشديدة تكاد تطيح بي إلى.. إلى أين؟.. الظلام الحالك من حولي يجعلني لا أرى شيئًا.. والسماء!.. السماء صافية والنجوم واضحات في مشهد من أجمل ما تكون.. وقريبة ولو مددت يدي لقطفت واحدة أو اثنتين.. وتطبق على الأرض.. طال الصمت إلّا من دوي الرياح التي ترغب في انتزاعي من مكاني.. وشددت معطفي أكثر بحثًا عن مزيد من الدفء.. لقد طال الانتقال!.. أخذت شهيقًا عميقًا.. صحت:

- عبد الكريم، أين أنت؟

لا أعلم أين هو؟.. وذهبت الرياح الشديدة بقوة صوتي.. و..

و جاءني صوته هادئًا من جواري، يقول:

- أنا هنا، بجوارك، لا تتحرك من مكانك.

أخذت نفسًا عميقًا، عدت أصيح - ولا أعلم لماذا- رغم علمي بقربه، رُبَّما بسبب الرياح:

- متى نصل؟

جاءني صوته يقول:

- لقد وصلنا فور انتقالنا، نحن ننتظر (محمود).

غريب أمره.. صوته هادئ.. لا يجد مشقة في التنفس والحديث!..

تمهلت لأعبُّ الهواء الشحيح.. شحيح؟!.. الرياح توشك على اقتلاعي.. لا شكّ أنَّ الأكسجين هو الشحيح.. وهذا يعني.. أننا على ارتفاع شاهق.. أين نحن؟..

نقلت خواطري إلى سؤال، صحت:

- أين نحن؟

- على قمة جبل (أكونكاجوا) في الأرجنتين، أعلى جبل في أمريكا الجنوبية.

- ماذا؟

خرجت منّي قوية.. عالية.. دِهَشة.. لقد قال إننا سنذهب في مهمة صغيرة، تحتاج ثيابًا ثقيلة..

أخذت عدة أنفاس متعاقبة، صحت:

- لماذا لم تخبرني؟

- هل كنت ستأتي لو أخبرتك بذلك؟

لم أجب.. حقًا!.. هل كنت سآتي؟.. حتمًا لا.. هنا طرحت المكرر:

- فيم تحتاجني هنا؟

- لا شيء.

المشكلة في الأرجنتين.. أنَّها بعيدة عن منزلي.. بعيدة جدًّا.. خنق (عبد الكريم) يعني عدم العثور على طريق العودة إلى منزلي..

شرعت أعبُّ الهواء كي أجد القدرة للتالي، صحت:

- إذًا لم أحضرتني معك؟

- ألا تحب أن تشهد النهاية! ويمكن اعتبار هذا نوعًا من زيادة المعارف.

وهل شكوت لك؟.. أنا سعيد بجهلي.. بمعارفي المحدودة.. بعالمي الصغير..

صحت:

- أين (محمود)؟ لماذا لم تحضره معنا؟

- نحن في انتظاره، لا يستطيع الانتقال معنا بالحالة التي عليها الآن، عمومًا لن يتأخر كثيرًا.

- متى سيصل؟

- ها أنا.

جاءت هذه من (محمود) على جانبي الأيسر، التفت إليه.. لم أره.. اكتفيت أنَّه هناك.. أدرت رأسي إلى حيث أفترض أنَّه موضع (عبد الكريم).. صحت:

- ماذا الآن؟

جاء الرد على هيئة ضوء أنار المكان وظهرت حقيقته.. كُنّا واقفين تحيط بنا الصخور من ثلاث جهات، وعجزت أنَّ تدرأ عنَّا الرياح.. والماكر (عبد الكريم) في زاوية بعيدة لحد ما.. يحمل مصباحًا ويستدير إلى صخرة خلفه.. فعل شيئًا ما.. لتُزاح الصخرة ويظهر ممر وراءها.. أشعر أنني في أحد أفلام (إنديانا جونز).. بعد قليل سندخل.. وتنحدر صخرة لتسحقنا أسفلها..

دلف (عبد الكريم) وهو يقول:

- هيا بنا.

تبعته مترددًا.. وشعرت بإنكسار حدة الرياح في الممر.. لم نسر سوى بضع خطوات.. وأضاء الممر.. فوجئنا.. دُهشنا.. توقفنا.. التفت حولي لأرى

مصدر النور.. كانت الزخارف هي التي تشع النور، ولفت انتباهي طبيعة الممر، لوهلة تظن أنَّه ممر بجدران عليها نقوش مُضيئة، ثمّ تُدرك أنَّها أحجار مختلفة الأحجام والأشكال بحواف خضراء مُضيئة، تمّ قصَّها بدقة متناهية ورصَّها لتصنع جدارًا كاملة يبدو كقطعة واحدة مزخرفة، لم أتمالك نفسي.. سألت:

- ما هذا المكان؟

دون أن يلتفت، أجابني (عبد الكريم):

- أثارهم.

لم يخبرني أثار مَن؟ وهممت بسؤاله لولا أنني فطنت أنَّه يعني العالم القديم، الدهشة اجتاحت كياني.. هذا الجمال.. هذه الدقة.. هذا الجهد.. وتذكرت ما تفعله الطابعات الثلاثية الأبعاد في حاضرنا.. لقد وضعنا أقدامنا على بداية الطريق، ولا يزال أمامنا مسيرة طويلة.. جدًّا.. ولكن هل سنلاقي ذات النهاية؟..

أقتربنا من انحناءة في الممر، ودون أن يلتفت إلينا، أشار (عبد الكريم) بيده أن نتوقف، وأطلّ بحذر برأسه، وأشار بيده لنواصل السير في الممر الذي ينتهي بباب ضخم مغلق، على جانبيه تمثالان حجريان عملاقان، بلغنا الباب المغلق، تأمل (عبد الكريم) الباب الضخم.. حاول دفعه.. مرة.. وأخرى.. ثم ترك الأمر وعاد يتأمل..

قال:

- كيف نتخطى هذه العقبة؟

أجبته، وأنا أتأمل المكان من حولي، أجبته:

- عادة في قصص وروايات كهذه، يوجد زر أو ذراع مخفي، تقوم بجذبه فيُفتح الباب.

أشرت إلى أحد التمثالين، قلت:

- هل ترى هذا الشيء الذي يبدو كبندقية في يد التمثال، يُفترض أن نجذبه لأسفل فيُفتح الباب.

طبعًا قلت ما قلته من باب الدعابة والتسلية، ولكن (عبد الكريم) لم يدرك ذلك وجذب البندقية وهو يقول:

- حقًا!

لم تتحرك الذراع.. والإحباط عليه، قال:

- لا يتـ...

- أنا سأذهب.

هذه من (محمود) الذي نسينا كل شيء عنه، وقرن قوله بالفعل ورأيناه يغوص في الباب و.. ودوت صرخة عالية مكتومة من الجانب الآخر من الباب.. صرخة إنسان يتعذب أشد ألوان العذاب.. استمرت لحظات قصيرة اندفعت خلالها اضرب الباب - الذي لا أدري مما صُنع - وأصيح:

- محمود.. محمود.. ماذا حدث؟.. هل أنت بخير؟

ضرباتي خافتة كأنني أطرق على صخر وأسئلتي حمقاء.. الرجل يُشوى حيًا في الداخل على يد الزَّبانية.. وأنا أسأله ما إذا كان بخير!..

التفت إلى (عبد الكريم) لأجده قد جلس القرفصاء وأمسك كتابًا عجيبًا يُقلّب صفحاته، كلما قلب ورقة اختفت وظهرت مكانها ورقة أخرى.. كمن يُقلّب كتابًا إلكترونيًا على حاسوب.. ولكن الأمر أكثر غرابة وإثارة للدهشة..

سائني تجاهله ما أصاب (محمود)، قلت والضيق حالي:

- ماذا تفعل؟

أجابني دون أن ينظر إليَّ:

- أحاول العثور على طريقة لفتح الباب.

لم أعُلّق على كلامه.. لا أدري لماذا ذكرني منظره وهو يرتدي الجلابية ويضع العمامة ويجلس القرفصاء ويُقلِّب الكتاب بمشهد التلميذ الأحمق الذي أدخل كتابًا في الامتحان ليغش منه..

كانت صرخات (محمود) قد اختفت، ووقفت انظر إلى (عبد الكريم).. فجأة ظهر رجل يرتدي معطفًا أسود طويلًا أمام (عبد الكريم) ويختطف الكتاب من بين يديه ويقول كلمة ما ويختفي، فوجئنا.. لوهلة لم يغير أحدنا حالته.. ثمّ هبَّ (عبد الكريم) واقفًا ويهتف:

- اللعنة.

وتذكرت الآن الكلمة التي نطقها الرجل، كانت كلمة إنجليزية تعني "شكرًا لك"..

هتف:

- مَن هذا؟

فتح (عبد الكريم) فمه ليجيبني ولكن صوت كصوت الريح قاطعه وتألق الباب بلون أبيض.. وظهر على أعتابه شاب في أو.. دع عنك الشاب.. أنَّ هذه اللحظات من أجمل اللحظات.. لحظات يحلو فيها الفناء.. تصير ذرات تتبعثر في الهواء.. يتلاشى كل ما يثقل كاهلك.. كل ما يشغل ذهنك.. تطفو في بحر النشوة.. نشوة لم تعرفها من قبل.. لم تدركها.. لم تتخيلها قط.. هل سمعت بصريع القمر؟.. هل علمت الآن ما يقصدونه بجنون القمر؟.. هذه الحكايات الآن تعيشها.. الآن تصدقها.. الآن تؤمن بها.. تلك حكايات القمر.. في ليلة اكتماله.. في ليلة صيف رائعة.. على كثيب من الرمال النقية.. والخدر في أوصالك.. عيناك لا تبصر سواه.. عقلك لا يدرك غيره.. أين الزمان؟.. أين المكان؟.. هذا هو القمر.. في أوج مجده.. في ذروة بهائه.. كل هذا لا يساوي شيئًا أمام النور الذي يسطع من وراء الشاب.. هل النور والضوء سواء؟.. ورب الكعبة ما بينهما كما بين المشارق والمغارب.. الضوء ألم.. الضوء عذاب.. النور نشوة.. النور سعادة.. النور مُنتهى الملذات..

مسحور.. مبهور.. سرت نحو الباب.. تجاوزت الشاب.. سقطت يداي اللتين تشدان معطفي.. ارتفعتا.. أريد معانقة هذا النور.. أضمه إلى صدري.. صيحات بعيدة.. بعيدة.. تنادي باسمي.. مَن يبالي؟.. مَن يهتم؟.. أنا ذاهب للنور.. ذاهب إلى... وذهب النور!..

*** * ***

15

خصم جديد

"وقف (جيلبرت) ينظر إلى موضع (عبد الكريم) جامدًا لا يتكلم قبل أن يهتف:
- اللص.. الحقير..
غريبة الطريقة التي يستخدمون فيها مفرداتنا..
ووثب بقوة في الهواء ليتبع خصمه واصطدم بقوة بالهواء أو بلوح زجاجي خفي وسقط على مقعده.."

ثلاث ساعات كاملة.. ثلاث ساعات حتَّى زال الخدر من أوصالي.. حتَّى عاد عقلي إلى كياني.. إدراكي إلى الوجود.. لأجد شابًا أسمر يجلس بجواري.. نظرت حولي.. نظرت إليه.. نطقت:

- مَن أنت؟

-أنا (محمود).

نطقها الشاب كأنَّ هذا أمر بديهي.. كررت:

- محمود!

نطقتها والاستغراب يغلف كلماتي.. كان الأدراك يعود إليَّ ببطء.. وبدأت أعي المكان.. قاعة واسعة.. جدرانها مليئة بالزخارف على نسق الممر.. وتتدلى عليها قطع قماش بألوان عدة، وفي الأركان أعمدة تنتهي بأجهزة غريبة معقدة.. وفي وسطها عمود كأنه من الزجاج الأخضر المعتم.. يضيء جوفه بنور يجعل للعمود طيفًا جميلًا، وقمة العمود مُغطاة بقطعة قماش بلون بنفسجي موشَّى برسوم غريبة بلون أخضر كأنها تُضيء.. وتُخفي أسفلها شيئًا كالكرة.. من الواضح أنَّ قطعة القماش دخيلة.. وأنَّها وُضعت لغرض ما..

عدت انظر إلى مَن يقول أنَّه (محمود)، سألت:

- أين نحن؟ أين (عبد الكريم)؟ أين الشاب الآخر؟

نظر (محمود) فيما حوله، أجابني:

- نحن حيث أحضرنا (عبد الكريم)، و(عبد الكريم) حين أفاق اختفى دون أن ينطق بكلمة، والشاب الآخر لا أعلم عنه، لم أره، لا يوجد سوانا، هل أنت واثق أنَّها ليست أوهامًا بسبب النور؟

تأملته.. تمعنت في ملامحه.. نفس ملامح الآخر.. ولكن الآخر بشرته بيضاء.. وهذا سمراء.. عدت انظر فيما حولي.. سألت:

- ماذا حدث؟ ماذا أصابك؟ لقد سمعنا صراخك كأنَّك تُشوى في جهنم.

لم يجبني على الفور، نهض.. اقترب من العمود الأوسط، وأخذ يتأمله، بعد لحظات قال:

- عبرت إلى هذه القاعة.. كأنني عبرت إلى الجحيم.. وجدت نفسي أستعر.. كأنني في نار جهنم.. حاولت الفرار.. ركضت إلى الباب من حيث أتيت.. أود اختراقه.. ولكنني اصطدمت به بقوة.. وسقطت أرضًا.. استمر العذاب بضع دقائق.. ثم خفت تدريجيًّا.. وأدركت أنني أشعر بالأرض من تحتي.. بالأشياء من حولي.. بالهواء في أنفاسي وصدري.. أدركت أنني استعدت طبيعتي.. فرحت.. وأردت أخباركم بهذا.. بحثت عن طريق لفتح الباب، ووجدت شيئًا أشبه بالزر على يمينه، وفُتح الباب ورأيت ما أصابكم، استغرقني الأمر ساعة حتَّى جاءتني فكرة أن احجب النور عنكم...

قاطعته مدهوشًا:

- ساعة كاملة!

التفت إليَّ بجسده كله، قال:

- نعم، ساعة كاملة حتَّى اهتديت إلى حجب النور، وأدركت صواب فكرتي من التغيّر الذي طرأ عليك أنت و(عبد الكريم)، وخفتت النشوة في ملامحكما، ولكنها احتاجت ساعتين أخريتين كي تزول تمامًا.

غمرتني الحيرة وأنا أقول:

- هذه الساعات الثلاث كانت لي بضع ثوان معدودة.

وثبت الدهشة إلى وجهه قبل أن تنحدر عنه ببطء، قال:

- حقًا! الغريب أنَّ ما أصابكم لم يصبني.

أخذت أفكر في ما حدث.. نهضت وسرت نحو العمود.. مددت يدي.. ولكن قبضة (محمود) أحاطت برسغي، وهو يهتف:

- كلَّا.

نظرت إليه، سألته:

- ولم لا؟

أجابني وهو يجذبني بعيدًا:

- حتَّى لا يتكرر ما حدث، لا أعلم ماذا سيصيبني هذه المرَّة؟

توقفنا بالقرب من الباب، قلت:

- والآن.. ماذا سنفعل؟

وكأن الإجابة بديهية، قال:

- سننتظر (عبد الكريم)، يبدو أنَّه يعلم الكثير، ويعلم كيف يتعامل مع هذه الأرض.

تذكرت مشهد (عبد الكريم) وهو يجلس القُرفصاء ويُقلِّب الكتاب.. (عبد الكريم) يعلم!.. أشك..

*** * ***

في مكتبه الصغير، انهمك (جيلبرت) في قراءة الكتاب الذي استولى عليه قبل قليل، من الغريب أن يعثر عليه في جبل (أكونكاجوا) في الأرجنتين، والرجل الذي انتزع منه الكتاب، كم يبدو غريبًا، يبدو من عامة الناس، بل من البسطاء، من أهل الأرياف، لكن من أي بلد؟ رُبَّما من بلد عربي، هناك الكثيرون من يرتدون الجلابية والعِمامة، كيف وصل إليه الكتاب؟ بل كيف وصل هو والكتاب إلى جبل (أكونكاجوا) في الأرجنتين، أنَّه ينبش العالم طوال الوقت بحثًا عن أي شيء من العالم القديم، ومع الأسف.. الشديد.. أنَّ من يملكون تلك الأشياء يجيدون إخفاءها.. منذ أكثر من ثلاثة أعوام لم يعثر على شيء.. وكم كانت دهشته حين تحركت بوصلة الباحث لتُشير إلى الجنوب، ومع أثر من العالم القديم استطاع أن يحدد المكان، وأن يرى الأشخاص، بُسطاء.. هذا ما يستطيع أن يصف به مَن رأهم، الرجل البسيط الذي انتزع منه الكتاب، والآخر الذي يبدو أنَّه حارسه الخاص، لم يكونا عقبة أو يحتاجان جهدًا للتغلب عليهما، انتقل هناك.. انتزع الكتاب.. عاد إلى.. قريب من هنا.. ثم إلى هنا.. وها هو الكتاب.. أنَّه ليس كتابًا يشرح وسائل وأساليب العالم القديم.. بل أجمل من ذلك بكثير.. أنَّه كتاب يؤرخ

فترة مهمة من فترات العالم القديم.. وكتب التاريخ كنز ثمين.. أنَّها كثيرًا ما تدل على أماكن قد توجد فيها آثار من عالمها.. آثار عظيمة.. صحيح أنَّه يجد صعوبة في قراءة الكتاب.. إنها لغة قديمة ليس لها وجود.. وقد استطاع فك رموزها حين عثر على كتاب يربط الصورة بالكلمة.. يبدو أنَّ أساليب التعليم في العالم القديم تشبه لحد ما أساليب عالمنا الحاضر.. مع الأسف الشديد.. أنَّ جميع المهتمين بالعالم القديم يخفون أسرارهم ولا يشاركونها مع المهتمين.. لهذا جميعهم يعتمد على جهده الخاص.. ورُبَّما معلومة تأتي من هنا أو هناك.. و..

امتدت يد لتنتزع الكتاب من بين يديه و..

- هذا الكتاب يخصني.

ورفع رأسه ليجد (عبد الكريم) أمامه، لهُنيهة لم يتكلم، حلب بعض الهدوء من ضرع اِنفعالاته، سأل:

- كيف وجدتني؟ لقد عدت بعيدًا مِن هنا!

أجابه (عبد الكريم) وعيناه تجولان في أرجاء المكتب:

- هذا السؤال لا يُسأل في عالمنا.

أراح (جيلبرت) ظهره إلى مقعده:

- صدقت.

توقفت عينا (عبد الكريم) على البُوصلة في طرف المكتب الجالس إليه (جيلبرت)، وأدرك الأخير مغزى نظرة الأوَّل، وامتدت يده لتحول بين غريمه

والبوصلة، ولكن وثبة (عبد الكريم) كانت أقوى ودفع بيمناه البُوصلة بعيدًا عن يد (جيلبرت) وهذا يصيح:

- لا..

وسقطت البُوصلة على الكتاب في يُسرى (عبد الكريم)، و.. اختفى..

لو كانت هذه قصة أو رواية لأصاب القارئ الجنون، حين تبدأ الإثارة يحدث الاختفاء وتتوقف الأحداث..

وقف (جيلبرت) ينظر إلى موضع (عبد الكريم) جامدًا لا يتكلم قبل أن يهتف:

- اللص.. الحقير..

غريبة الطريقة التي يستخدمون فيها مفرداتنا..

ووثب بقوة في الهواء ليتبع خصمه واصطدم بقوة بالهواء أو بلوح زجاجي خفي وسقط على مقعده.. وشخصت عيناه إلى الفراغ أمامه.. تفاجأ؟ نعم.. غاضب!.. كَلَّا.. العالم القديم يثير إعجابه بكل ما لديه من وسائل عجيبة.. ذلك الشخص!.. لا بأس.. كل حين يجب أن يظهر خصم جديد في حلبة الصراع على آثار العالم القديم.. ومع الجديد تظهر خبرات مختلفة وقدرات أكبر ووسائل أغرب.. حقًا.. لقد خدعته هيئة خصمه البسيطة.. يبدو أنَّه يعلم الكثير.. ويملك المزيد.. كيف يتعقبه؟.. يستطيع تعقبه.. لقد صدق حين قال: "هذا السؤال لا يُسأل في عالمنا".. هواء مكتبه مليء بآثاره.. برائحته.. بطيفه.. سينتظر زوال الحاجز الذي يمنع الانتقال.. ثُمّ يسعى في البحث عنه.. بهمة..

نهض إلى رف الكتب أمامه.. ضغط زرًا خفيًّا.. وخرج رف صغير ليبدو خلفه فجوة تحتوي بوصلة مثل التي "أُسْتُعِيرت".. نظر إليها.. كانت الإبرة تدور في جميع الاتجاهات.. وأرضيتها سوداء لا تُظهر شيئًا.. لا بأس.. فطن لأمر لم ينتبه له من قبل.. منزله محمي ويمنع الانتقال منه وإليه.. كيف فعلها خصمه؟.. أمسك جبينه بيمناه.. كيف فعلها؟.. كيف فعلها.. الماكر!.. اللعين.. لقد استخدم حيلة بسيطة.. هذا يعني أن الخصم الجديد ليس هينًا.. أنَّه ذكي.. ماكر.. خبيث..

* * *

لم يمض على اختفاء (عبد الكريم) ساعة، حتَّى ظهر أمامنا، غريبة طريقة الانتقال هذه.. الاختفاء.. الظهور.. الظهور.. الاختفاء.. أنَّها تُجرِّد السفر من معناه ولذَّته وخبراته.. من هنا إلى باريس.. أين الجبال؟.. أين البحار؟.. أين البلاد بمُدُنها وقُراها وتضاريسها المختلفة؟.. أين البشر ورفاق السفر؟.. أين المعارف والخبرات؟.. لا أحسبها طريقة رائعة للسفر.. رُبَّما تناسب العودة من العمل فقط..

نظر إلى (محمود)، استفهم:

- محمود؟!

أومأ هذا برأسه، وردَّ:

- صحيح يا سَيِّد (عبد الكريم).

تأمله (عبد الكريم) لحظات تأمل المُتشكك، ثُمّ قال:

- هنيئًا لك.

والتفت إليَّ محذرًا، قال:

- خذا الحذر، لا أريد أن يتكرر الأمر ويأتي آخر ليسرقني.

وددت لو سألته عن الشيء الآخر الذي عاد به، ولكنه عاد يتخذ جلسته السابقة التي تذكرني بالتلميذ الأحمق في الأمتحان، أنَّه يعلم أنّنا سنأتي إلى هنا وسنواجه ما نواجهه، فلم لم "يدرس" في بيته؟.. أم هو كالتلميذ الفاشل الذي يؤجل الأمر إلى ليلة الامتحان، وحين يدرك عجزه عن الإحاطة بالمقرر، يدعو الله أن يمرض الأستاذ أو تزول المدرسة من الوجود، ويحلم بأنَّ وزارة التربية والتعليم قررت إلغاء التعليم وتحويل المدارس إلى مراكز ترفيهية..

طال انتظارنا وطال صمتنا، وحين أوشكت على فتح فاهي لأقول شيئًا ما، انطلق هتاف (عبد الكريم):

- هو ذا.

ونهض من مجلسه واتجه إلى أقرب ركن إليه حيث العمود القائم، وفعل شيئًا في الجهاز المعقد أعلاه.. وأنتقل إلى الثاني وكرر فعله.. فالثالث.. فالرابع..

ثم نظر إلينا وتكلم:

- الآن علينا رفع قطعة القماش هذه عن الكرة، وأخشى أن يتكرر ما أصابنا، سنعطي ظهورنا للعمود ونغلق أعيننا.

وافقناه بهز رؤوسنا، واقترب من عمود الوسط، وأعطينا ظهورنا للعمود ورأيته يفعل كما نفعل ويمد يده اليُمنى إلى وراء ظهره قبل أن أغلق عينيَّ، ولا أعلم ماذا حدث بعد هذا، شعرت بهواء لطيف يضربني، ثم سمعت صوت أشياء تتحرك أشبه بجر معدات ثقيلة، استغرق الصوت عدة دقائق ثم سكن لفترة طويلة جعلت (محمود) يقول:

- ماذا حدث؟ هل انتهى الأمر؟

أجابه (عبد الكريم):

- انتظر، يجب أن نسمع صوت الأشياء تعود إلى مكانها.

انتظرنا دقائق قليلة قبل أن نسمع الصوت يعود من جديد، سألت:

- هل نفتح أعيننا الآن؟

عبد الكريم:

- نعم، لا بأس الآن.

محمود:

- انتظر حتَّى نعيد قطعة القماش.

كان الوقت قد فات، وفتحت عينيَّ واستدرت إلى الخلف قبل أن يُكمل جملته، و.. لم يكن هناك شيء.. شيء مما توقعته.. عمود الوسط أعلاه كرة سوداء يشعُّ قلبها بنور أزرق خافت، أين النور؟.. أين ذهب؟.. لقد عادت القاعة كما كانت تُضيئها الزخارف على الجدران..

بحثت عن النور بعينيَّ.. لم أجده.. لا أنكر أنني رغبت فيه.. رغبت في الإحساس الذي غمرني.. أردت المزيد.. هل هذا هو الإدمان؟..

سألت:

- أين ذهب النور؟

بلا مبالاة.. أو حتَّى شيء من الاهتمام.. نظر (عبد الكريم) إلى الكرة السوداء، أجاب:

- ذهب.. فرغت طاقتها..

ونظر إلينا وملامحه ترسم سؤالًا نطقه لسانه:

- هل نعود؟

هل نعود؟.. وماذا بقي لنا هنا كي نبقى؟.. نعود ونعود سراعًا..

*** * ***

16

الخاتمة

"كما ترون أنَّ ما قلته في مقدمة مذكراتي وهو:
" ويبدو أنَّ المصائب قد انزعجت من حالي، وأغاظها أنَّها لا تأتيني ولا آتيها، فعزمت على أنْ تجعل ما بقي من حياتي مصائبًا وكوارثًا.."
يعبر بدقة عن حالي، فلا شأن لي بهذا الأمر وكل الحكاية، بل تمَّ "حشري" رغم أنفي فيها، كل هذا لأنني سمعت الأستاذ (محمود) ينتحب في الحمام، وهذه عبرة يجب الأخذ بها وهي "لا شأن لك بمن يبكي في الحمامات""

- لم تره يا أبي! نور أضاء الكون كله، لم يبق ركن ولا زاوية ولا حفرة في منزل جدي وما حوله إلّا وأضاءها.

هذه الكلمات التي تحمل الانفعال الجارف تخرج من فم ابني (أحمد)، تبعها قول (خديجة) باِنفعال لا يقل عنها:

- والاِحساس يا أبي، يا إلهي، الاِحساس.. كأنَّك مت وذهبت إلى الجنة.. يا إلهي يا أبي.. يا إلهي..

كنت استمع إليهم ونحن جلوس مع (زينب) في بهو منزل أبي نتابع أخبار ما حدث.. كانت الأقاويل والإشاعات والتكهنات تدور حول النور الذي ملأ الكون وقت الظهيرة في بلدنا، ما مصدره؟.. من أين جاء؟.. كيف غمر الدنيا كُلّها في نفس اللحظة؟.. الغريب أنَّه كان ظاهرًا واضحًا في منتصف النهار والشمس في ذروتها كما كان في عتمة الليل والظلام الدامس.. في جميع البلدان والبقاع.. باِختلاف أوقاتها.. أنا من القلَّة التي عرفت ما حدث.. بل وشاركت فيه..

زينب.. آسفة.. متحسَّرة:

- مع الأسف لم يستغرق وقتًا طويلًا، بضع دقائق واختفى.

المسكينة.. كيف لوكنتِ عنده؟.. بجواره..

من الغريب أن تأثيره يتلاشى سريعًا، فلا يبقى منه إلّا ذكرى لذَّة تتوق إلى تكرارها..

التفتت إليَّ، سألتني:

- هل أنهيت إجراءات السفر؟

أطلقت تنهيدة طويلة، أجبتها:

- ستحتاج أسبوعًا، رُبَّما مع بداية الأسبوع القادم.

نضح صوت (خديجة) بالرجاء وهي تقول:

- أبي، لم لا تأخذنا معك، أرغب في مشاهدة لندن.

شاركها (أحمد) وزجرتهما أمهما، قلت وأنا استعيد ذكرى النور:

- زيارتي ستستغرق أسبوعًا أو أكثر قليلًا، سأطمئن على أحوال عمكم (عدنان) وأعود بسرعة.

تداركت بسرعة وأنا أرى الخيبة تنسال على وجهيهما:

- إذا وجدت عمكم بخير حال، وسمحت ظروفه باستقبالكم، فأعدكم بأنني سأطلب منكم اللحاق بي.

وثبت (خديجة) من مكانها لتجلس بجواري وتضع يديها حول عنقي، وتصيح ببهجة كأنَّ الأمر تمَّ:

- حقًا يا أبي؟ حقًا؟

أومأت برأسي وأكدت:

- حقًا يا (خديجة)، حقًا.

هتفت:

- أبي الحبيب، أبي الغالي.

وأتبعت قولها بقبلة طويلة لها مواء على خدي، مما جعل (زينب) تقول:

- يا بختك يا سَيِّدي، ماذا أبقيت لنا؟

***

مضى الأسبوع في الإعداد للسفر ولم يتخلله سوى زيارة (عبد الكريم) و(محمود) لي في بيت أبي، وقد استعاد (محمود) لونه الطبيعي، وأخبرني بأمر غريب:

- ذهبت إلى قصر السَيِّد (هاجارد)، لأجد أنَّه قصر (فاندربيلت) وأنَّه مزار سياحي تابع لإدارة (المتنزهات الوطنية)، وحين أخبرتهم بأمر السَيِّد (هاجارد) صاحب المكان، قالوا إنَّ هذا مستحيل، القصر منذ وقت بعيد ملكية عامة، ولا ريب أنني أخطأت المكان، قلت لهم أنني متأكد مما أقول، بل أنني مكثت عدة أيام في الحجرة الزرقاء، قالوا إنَّ هناك حجرة زرقاء وهي للزيارة وليست للإقامة، قلت لهم إن لي أغراضًا فيها، فأخبروني إنَّ هذا مستحيل، بعد إصرار شديد ومحاولات عدة ذهبوا إلى هناك، أتعلمان ماذا وجدوا؟

اكتفى الاستفهام بوجهينا فاضطجع هناك، ولم يأبه بلسانينا، وأردف (محمود):

- لقد وجدوا أغراضي كما تركتها، وبعد تحقيق وشد وجذب وجرد لأغراض القصر، سمحوا لي بأخذ أشيائي وهم في أشد العجب مما قلته ووجدوه، في البداية حسبوني مجنونًا ثم أدركوا أنَّه أمر لا يفهمونه.

قلت:

- أنا بدوري حين تتبعت رحلتك وجدت قصر (فاندربيلت)، وحسبتك متوهمًا واختلط عليك المكان.

نفى (محمود) برأسه، قال:

- اختلط علي المكان! مستحيل قد يتطابق شيء أو أكثر، لكن كل شيء! محال.. القصر.. الحدائق.. الذين رأيتهم يعملون فيها.. الطريق إلى النهر.. مستحيل.. لقد كان المكان نفسه..

لم أعلق ونظرت إلى (عبد الكريم)، سألته:

- كيف نعلم أنَّ الأمر انتهى؟

عبد الكريم:

- لا نعلم، قمنا بما يجب فعله، هل أفلح؟ لا نعلم، (محمود) لا يعرف الأماكن التي يعملون فيها، كي نذهب ونرى بأم أعيننا.

ألقيت عيناي على (محمود)، قلت:

- حين هربت منهم وعدت إلى السَيِّد (هاجارد)، ألا يمكنك تحديد الموضع الذي فررت منه؟

تنهد.. وتنهد (محمود)، قال:

- في حالتي تلك لم يكن للمكان والزمان معنى، كل شيء رغبة، أتذكر كيف طاردت سيارتك؟ ولكن بحالتي الطبيعية هذه! لا أعلم، رُبَّما تبعد ميلًا أو ألف ميل.

معاندًا إصراراه على الجهل، قلت:

- ولكنك تحدثت عن مكان فيه جليد، رُبَّما يقودنا إلى شيء ما، أيمكنك تخيَّل ذلك المكان؟

محمود مصرًا على الجهل:

- أي جليد؟ جليد نيويورك أم كندا أم القطب الشمالي أم الجنوبي؟ في الحالة التي كنت عليها، جميعها سواء وعلى نفس المسافة.

تكلّم (عبد الكريم) بنبرة من يرغب في إغلاق الموضوع:

- لنأمل أنَّ الأمر انتهى على الوجه الصحيح.

ذكرته بأمر يبدو أنَّه نسيه:

- والبوابات؟ هل نسيت أمرها؟

عبد الكريم:

- لم أنس، ولكن ما سيحدث العام القادم هو تحقق الشرط الأوَّل، ولن تُفتح حتَّى تتحقق جميع الشروط.

كلاهما ينظران للأمر من زاوية متفائلة، ولم أرغب في الظهور بينهما كغراب الشؤم، فطويت صفحة ذلك الحديث وانتقلنا إلى أحاديث أخرى..

*** * ***

كما ترون أنَّ ما قلته في مقدمة مذكراتي وهو:

"ويبدو أنَّ المصائب قد انزعجت من حالي، وأغاظها أنَّها لا تأتيني ولا آتيها، فعزمت على أنْ تجعل ما بقي من حياتي مصائبًا وكوارثًا.."

يعبر بدقة عن حالي، فلا شأن لي بهذا الأمر وكل الحكاية، بل تمَّ "حشري" رغم أنفي فيها، كل هذا لأنني سمعت الأستاذ (محمود) ينتحب في الحمام، وهذه عبرة يجب الأخذ بها وهي" لا شأن لك بمن يبكي في الحمامات".

أبطال هذه القصة هم الأستاذ (محمود) والسَيِّد (هاجارد) و(عبد الكريم) وشعب (أوكّو)، أين أنا؟ لا مكان لي، فلم إزعاجي وحشري فيما لا شأن لي به؟.. هه!.. لماذا؟

تجاهلت كل شيء وأتممت استعداداتي للسفر.. طبعًا السعد كان ينتظرني في لندن و.. ولكن لننتظر قليلًا..

* * *

- **الزمان: حقبة مجهولة في تاريخ الأرض.**
- **المكان: غير معروف.**

رفع (أب - رحيم) رأسه إلى السماء ونظر إلى القرص الأبيض المستدير في كبد السماء المُظلِمة.. مَن يصدق أنَّ هذه هي شمس الظهيرة؟.. مَن يصدق أنَّ هذا القرص كان قبل بضع سنين شمسًا تملأ الكون ضياءً ودفئًا.. تأمل القرص بضع لحظات.. وخفض بصره وشدَّ ثوبه عليه ليجلب مزيدًا من الدفء، ونظر إلى (كثير -العطاء) في ضوء النور القادم من قمة عمود في وسط آخر معاقلهم، مَن يصدق أنَّ صراع قارب على الألف سنة أوشك على الاِنتهاء.. بهزيمتهم.. لقد انتصر شعب (أوكّو).. حقيقة لا ينكرها أحد.. رُبَّما أيام.. رُبَّما ساعات.. ويسقط المعقل الأخير..

بلغه (كثير - العطاء) وأنفاسه تتلاحق في صدره، لم يكن (أب - رحيم) في حاجة إلى سؤاله عمّا وراءه.. فمنذ وقت طويل لم يعد هناك من يأتي بأخبار جيدة، ولم يُكذِّب (كثير - العطاء) ظنه حين تكلم:

- سَيِّدي، لقد سقط القطاع الجنوبي، أنهم يتقدمون إلى وسط المدينة.

هزَّ (أب - رحيم) رأسه، قال:

- والجنود؟ هل بقي أحد منهم؟

بأسف.. بحزن.. أجابه (كثير - العطاء):

- بقي القليل، وهم يتجمعون ويتحصنون حول عمود النور الأخير.

نظر (أب - رحيم) إلى عمود النور الأخير في وسط المدينة، النور الذي يبعث الحياة في آخر معاقلهم، أطلق تنهيدة عميقة طويلة، لقد دخلوا

المدينة، وسيجدون حتمًا وسيلة لتدمير هذا العمود كما دمروا ما قبله، سيعطيهم هذا النور ساعات ورُبَّما بضعة أيام من الصمود والمقاومة قبل أن يسقط عالمهم كله..

سأل:

- هل من أخبار عن (ابن - البحر)؟

ازداد (كثير - العطاء) أسفًا وحزنًا، ووضع عينيه في عيني آخر قادته، قال:

- سَيِّدي، هل ما زلت تحمل الأمل؟ لقد انقطعت أخبارهم منذ سقوط الأراضي الغربية، منذ عشر سنين لم يسمع بهم أو عنهم أحد.

زفر (أب - رحيم) وعاد ينظر إلى السماء، كأنَّه يلقي نظرة وداع أخيرة على شمسهم، قال:

- هل هي النهاية يا (كثير - العطاء)؟ هل انتهى عالمنا؟

شاركه (كثير - العطاء) النظر إلى السماء، قال:

- من الغريب أن تكون هذه نهايتنا، لم ننهزم في حرب العوالم رغم وحشيتها وشراستها، وثبتنا في مواقعنا حتَّى أُغلقت البوابات، وخضنا حربًا قاربت ألف سنة ضد المُنتصر في حرب العوالم، ولم تنفعنا كُلّ أساليبنا في دحرهم، وحين وجدنا الطريقة، لم نستطع صُنعها رغم بساطتها، فقط نور، نور صاف يكفي لدحرهم، نور نعجز عن صُنعه.

زفرة طويلة كانت تعقيبًا كافيًا على كلام (كثير - العطاء) و.. أضاء النور الكون كله.. كل ثنية.. كل زاوية.. كل جحر.. كل نفق.. اختفى الظلام والظل من الوجود.. لم يعد هناك سوى نور صاف.. طمس الظلمة والظلال.. فصار

كل شيء ألوانًا مصمته بلا أبعاد.. نور هادئ جميل.. يتغلل في الأجساد والأرواح.. نور لا تريد منه سوى أن يأخذك معه.. أن تصير ريشة يتلاعب بها.. تكون طيف من أطيافه.. ذرة من ذراته.. ساعة كاملة.. ساعة كاملة من التلاشي.. من العدم.. و.. اختفى النور..

واحتاج القوم ساعة أو أكثر حتى عاد إليهم رشدهم، وجاء (نهر - المشرق) حاملًا البُشرى، لقد انهارت جيوش شعب (أوكّو).. جيوشهم تساقطت في كل مكان.. وعادت الاتِّصالات بين بقاع الأرض..

نظر (أب - رحيم) إلى السماء، الأخبار السعيدة لم تغيّر من حقيقة أنَّ شمسهم مُطفأة لا تشع ضوءًا.. انتبه في هذه اللحظة إلى شعاع صغير انبثق من القرص الأبيض.. وأدرك أنَّ هناك طيفًا صغيرًا من النور يحيط بالقرص.. أنَّ شمسهم تتعافى.. وببطء تستعيد قوتها وضياءها.. الآن.. والآن فقط يستطيع القول أنَّ الغُمة قد مضت..

- سيحتاج الأمر بضعة ساعات قبل أن تعود لطبيعتها.

قال (أب - رحيم) دون أن ينظر إلى مُحدثه:

- لتأخذ ما تشاء من الوقت، المهم أن تعود لطبيعتها.

ونظر إلى مُحدثه في النور القادم من العمود في مركز المدينة، ليس غريبًا.. لقد رآه من قبل.. لا يعلم أين؟.. ولكنه حتمًا رآه في مكان ما..

قال مُحدثه:

- أوَّل شيء رغبت فيه بعد ذهاب هذه الغُمة واندحار شعب (أوكّو) هو لقاء الذي قاتل إلى النهاية، وثبت إلى اللحظة الأخيرة..

حدَّق (أب - رحيم) في وجه مُحدثه.. الآن.. الآن علم أين رأى صاحب هذا الوجه، إن لم يكن هذا (ابن - البحر)، فمن يكون؟.. هتف:

- ابن - البحر.

عانقه (ابن - البحر) و(أب - رحيم) يردف:

- يا إلهي، لقد انقطعت أخباركم، حسبنا أنكم.. أنكم..

ابن - البحر:

- لم نستطع الاتِّصال بكم، والعمل على إنقاذ عالمنا من النهاية صرفنا عن كل شيء.

عالمكم تأجلَّت نهايته فقط.. واقترب الاستبدال.. بعالم آخر.. يختلف معكم.. وعنكم.. في كل شيء..

تمت بحمد الله

إن
شاء الله
الرواية
القادمة

العهد الجديد

اقتربت (إيف) منّي حتَّى ضربت أنفاسها وجهي.. أنفاسها! غريب هذا.. أنَّها جسد بلا روح.. كيف ما لا روح له أن يتنفس.. تأملت ملامحها الفاتنة و.. وضعت يدها على صدري على موضع القلب، قالت:

- عطية.. عزيزي.. لقد انتهى عهدكم.. انتهى وإلى الأبد.. وبدأ عهد جديد.. عهدنا.. نحن..

ورفعت يدها عن صدري لتصير بين وجهينا، وفجأة ظهرت مخالب حادة في أطراف أصابعها.. نظرت إلى المخالب بافتتان.. بوله.. همست:

- انظر.. انظر يا (عطية).. لقد فعلتها بنفسي..

لم استطع أن أدير وجهي عن عينيها.. لعل الخوف شلَّ أركاني.. وعادت تنظر إلي.. أردفت:

- هل تحب ما فعلته؟ هل تحبني؟ أم أنَّك كالآخرين تريد تدميري.

عادت تضع يدها في نفس الموضع وتغرس أصابعها بقوة، وشعرت بمخالبها تمزق بذلتي وتغوص في لحمي.. شعرت بدمائي تسيل.. وهي تنظر إلي.. لا تفارق عيناها عيني..

▪️ ◾ ⬛ ⬅️ للكاتب إبراهيم محمد ➡️ ⬛ ◾ ▪️

الغَيْهَبُ

حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصير الواقع ضربًا من الخيال

1 - بدايات مُخِيفة
2 - النور والظلام
3 - العَهْد الجديد (بمشيئة الله في المستقبل القريب)

الرِحْلة

رِحْلة إلى حدود العالِم.. لمعرفة الحقيقة
وإجابة سؤال.. أكروية هي أم مسطحة

1 - الرحيل ج1
2 - القصَّابون ج2
3 - وادي الصمت ج1 (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
4 - الرَاهِب ج2

عالم جديد

عالم ينهض من رماد حرب طاحنة
يبني حاضره.. وينظر مستقبله

1 - النهوض
2 - العودة إلى الصفر (بمشيئة الله قريبًا)
3 - أوار الماضي
4 - العائدون ج1
5 - طلائع الشرّ ج2

البُسْتان

روايات تبحث لها عن ملجأ

1 - رواية خلاعيَّة
2 - الكتلة السوداء
3 - مملكة الأحزان (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
4 - الله والشيخ والشيطان وأنا
5 - طريق الخُلُود
6 - ثلاثون من المائة
7 - ألف ألف إله
8 - فجوة في جدار المُستقبل

الفُنْدُق

قضايا وتحقيقات

1 - جميلة الجميلات
2 - بِيعَ (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
3 - خصوصية
4 - جُثَّة لا تحب القبور
5 - ساعة تُنادي النهاية

ما وراء النهاية

مع كل نهاية بداية جديدة

1 - كنوز الملك سليمان
2 - الرجل الخفي (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
3 - رحلة إلى مركز الأرض
4 - جزيرة الكنز

ترجماتي

الأدب بقلمي

1 - نهاية النهر (بمشيئة الله في المستقبل القريب)

 Wordsonsnowtablet@gmail.com

 Wordsonsnowtablet



الغَيْهَبُ
حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيال

2



إبراهيم محمد

النور والظلام

أخذت مجلسي على الأريكة، وأنا أفكر
بعمق في الأحداث السابقة، وأُستغرقت في أفكاري،
حتى قطع تفكيري ظِل أسود، ظِل
أسود لشخص ما ينتصب أمامي، رفعت رأسي.. لم يلفت
انتباهي أنَّ الظِل يتعارض مع زاوية الضوء
ولا سواده الشديد، بل أنَّ الظِل منتصب أمامي كفجوة
في الفراغ، أو لوح شديد السواد لا يعكس شيئًا من الضوء
تم قصَّه على هيئة إنسان، ولكن الحقيقة أنَّه ظِل..
ظِل بلا جسد.. ظِل لا يتكئ على موجودات..

الرواية القادمة
العهد الجديد